
السيد فرج
القيادة والحرب
عند العرب



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر



السيد فرج

القيادة والحرب
عند العرب

اقرأ ٤٠٢
دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٢)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الإهـــداء

إلى أبطال حرب رمضان البواسل الذين عبروا بالأمة العربية مفازة النكسة وأثبتوا بكل مقاييس الفنون العسكرية كفاءة القيادة والحروب عند العرب

السيد فرج

الموسوعة الحربيّة العربيّة

حقيقة تاريخية كبرى ، ولكنها ليست بين أيدينا

على مر العصور والأجيال وتتابع مراحل التاريخ كتب الكتاب من رجال الجندية والسياسة والاقتصاد والعلوم والآداب كتباً متعددة ومراجع وافية عن الحرب وفنونها المختلفة تناولت شتّى أسبابها ودوافعها ، وأصولها ومبادئها ، وأحداثها ونتائجها ، وأسلحتها ومعداتها ، وماديّاتها ومعنوياتها .. ومن ذلك كله ورثت كل أمة رصيداً من المخطوطات والوثائق والمطبوعات صدرت بأقلام كتابها ولغاتها أو ترجمت عن كتابات العسكريين النابهين والخبراء الثقات فى مختلف اللغات .

وموضوع « القيادة والحرب » من الموضوعات التى تجتذب القراء وبخاصة فى إبان الأزمات والأحداث الكبرى ، وهى أيضاً من الموضوعات التى اجتذبت القادة والمفكرين فى شتى الأزمان فشرعوا أقلامهم لتسجيلها وسطروا الصفحات لإثباتها وتوضيحها ، وقدموا من المشاهدات والخواطر والتعليقات ماجلا الكثير من خوافيها وغوامضها .

وبذلك يمكن القول إن لكل أمة مكتبة حربية تعتز بها وتستنير بما تلقيه من أضوائها على متعدد المواقف والأحداث ، بين سير عسكرية ووقائع حربية وصور وتسجيلات وانطباعات تحدث بما وقع لهذه الأمة من تجارب وما مر بها من وقائع كان لها الفضل فى بلورة فكرها العسكرى ،

وتكوين عقيدتها الحربية خلال عدة أجيال متتابعة .

وإذا كانت مبادئ الحرب ثابتة وأصولها متفقاً عليها فإنه لا غنى عن استمرار البحث والتجربة والممارسة والتطبيق ، لأن التطور والارتقاء من طبائع الحرب ومن ظاهرات الجندية ، ولهذا لا تتوقف الأقلام عند غاية ولا تهدأ المطابع عند نهاية ، وإنما يستمر الفكر يؤدى دوره فى الخلق والابتكار والتجديد وتستمر الممارسة فى تقديم التجارب والتعديلات فى الخطط والمناهج وتستمر حصيلة الفكر والتجربة فى التزايد والتجدد .

ولقد يحدث أن تقع الحرب فى أى جيل وعلى أى ميدان فيرتاع الناس لأهوالها ويفزعون لما يقع خلالها من أحداث وويلات ويطلقون عليها أضخم الأوصاف ، حتى إذا هدأت ثائرتها وانتهى وطيسها أخذت ذكراها تخفت رويداً رويداً . فإذا ما أقبلت حرب ثانية بأسلحة أشد فتكاً وأدوات أكثر ضراوة نظر القوم إلى الحرب السابقة نظرة ساخرة وعبثوا بالقول والإشارة والنكتة على ما كان يستخدم فيها من أسلحة هزيلة وأدوات كلعب الأطفال .

هكذا الحرب دائماً ، تتطور وتتجدد ، وتتضاعف شرورها وتتزايد ويلاتها ، فى جيل بعد جيل .

وهذا هو أيضاً شأن فنونها المختلفة .

ومن فنونها المتصاعدة وشئونها المتزايدة يلتقى القارئ فى كل بلد وفى كل عصر بنتاج الفكر العسكرى وثمرات التجربة الميدانية فى الاستراتيجية والتكتيك وفن القيادة ، وتتجمع لديه الحقائق والأسانيد بين ضفاف

المخطوطات وأضابير الوثائق وغُلُفُ الكتب مما جد فى إبداعه القادة العظام والمؤرخون الأعلام .

والأمة العربية جديرة بأن تحسب فى عداد الأمم ذات التاريخ الحربى الوضاء وذات المراجع العسكرية الوافية فى شئون القيادة والحرب ؛ فعلى مدى أربعة عشر قرناً من الزمن حفل تاريخ الأمة العربية أحداث البطولة وظاهرات التجلى وآيات السبق والتفوق، فى ميادين صراع واسعة ومتنوعة امتدت من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى .

ولكن المكتبة العربية لم تكشف عن كل نفائسها بعد ، أو أن التنقيب عن المخطوطات والمراجع لم يبلغ الغاية ، بل لا يكاد يصل إلا إلى القليل من أصداف الفكر العربى وجواهره .

ولكن الذى نشر –على قلته – يعطى انطباعاً صادقاً بأن العرب كانوا أبناء صنعة وأصحاب موهبة فى شئون القيادة والحرب .

وربما تقع هذه الحقيقة موقع الدهشة عند الأجانب الذين لا يعلمون من أمرها شيئاً .

ولكنها أيضاً تقع موقع الدهشة عند الكثيرين من أبناء الأمة العربية فى زمننا هذا .

وموقع هذه الدهشة أن الأجيال العسكرية الحديثة ، وليس عامة القراء فحسب ، قد تتلمذت على المكتبة العسكرية الأجنبية ، مدرسة نابليون ، وولنجتون ، وليدل هارت ، وويفل ، وفون شليفن ، ومولر ، وغيرهم من القواد والمفكرين والمعقبين العسكريين .

وتاريخ الحملات الحربية الذى يدرس فى مدارسنا العسكرية — حتى عهد قريب — فى الشرق العربى كله هو تاريخ حملات، اللنبي وويفل، وأحداث الحربين العالميتين فى غربى أوربا وشرقيها ، وفى شرقى آسيا .

والكتب والمراجع التى توالت على المكتبة العربية هى كتب القادة والمؤرخين الإنجليز والفرنسيين والألمان والروس .

والقادة أصحاب الشهرة والسطوة عند جماهير العالم—ومنها الجماهير العربية — هم الإسكندر وهانيبال ونابليون ومارلبورو وقيصر وجنكيزخان وروبرت لى ورومبل ومونتجمرى وزوكوف . .

ولا ينكر أحد ما لهؤلاء من شهرة وكفاية ومكانة تاريخية ، كما أنه لا خلاف فى أهمية تزويد مكتباتنا بكل طارف وتليد من كتب المؤرخين الأجانب وسير القادة من جميع الأوطان ، ولكن الذى عليه الخلاف هو خلو مكتباتنا من تسجيلات مؤرخينا وسير قادتنا ، وأيضاً قلة علمنا بما خلفه أوائلنا من مخطوطات ومراجع وكتب قيمة .

وبينما تملأ تواريخ وسير الأبطال الأجانب مكتباتنا وتدرس فى معاهدنا لا نجد عن أوائلنا وصناع مجدنا إلا القليل ، ولا يعرف النشء عنهم إلا النذر اليسير ، كذلك لم يصل إلى الدوائر الأجنبية من هذه السير والأمجاد ما يغريها بنشر وإذاعة أنباء وبطولات ومناقب قادتنا العظام .

وقد اعتادت مكتباتنا أن تتلقى أفواجاً متتابعة من الكتب الشائعة بأقلام المشاهير وبكافة اللغات عن عظماء التاريخ ، دون أن يرد كتاب واحد عن بطل عربى ، كما اعتادت دور النشر وكبريات الصحف نشر

موضوعات تاريخية وتسجيلات وقوائم عن أبطال الحروب وكبار القادة دون أن تذكر اسما عربيًّا واحداً .

فإذا نظرت إلى قائمة كبار القادة التى نشرها فى الماضى أو الحاضر كتاب وقادة ومحققون عسكريون — من جميع الأجناس — تجد أن تلك القوائم تحمل أسماء متعددة من دول شتى وفى أجيال متعاقبة منذ فجر التاريخ حتى اليوم ولم يظهر فيها اسم بطل عربى واحد ، كأنما خلا تاريخنا من البطولة وكأنما لم يكن لنا فى ميدان النصر والفتح أيام خالدة ووقائع باهرة ورجال من الطراز الأول .

هل أقول إن معلومات أبنائنا — فى شتى مراحل التعليم — ما زالت قاصرة بالنسبة لتاريخنا الإسلامى والعربى وإننا لم نتعمق دراسة سير وحياة ومناقب قادتنا العظام .

وهل أقول إن معلومات أبنائنا — فى الشرق العربى — عن الإسكندر وهانيبال ونلسون ونابليون وروميل ومونتجمرى .. أشهر وأغزر مما نعرف عن سيف الله خالد بن الوليد والجندى القوى الأمين أبو عبيدة بن الجراح والجندى الدبلوماسى الشاعر عمرو بن العاص ، والقائد الأسد سعد بن أبى وقاص ، وغيرهم من القادة الميامين والنوابغ والأفذاذ .

هؤلاء القادة البررة الذين آمنوا برسالتهم وأخلصوا لوطنهم العربى الكبير وقادوا جيوشهم البسيطة الشجاعة عبر ساحات قتال صعبة وفى مواجهة جيوش جرارة لم تقهرهم الأسلحة والمعدات التى تفوق ما كان

بأيديهم ، ولم تصدهم الحصون والقلاع المنيعة ،وابتكروا الأنظمة واستحدثوا الخطط وكشفوا حقائق الحرب وعوامل النصر ورسموا خريطة الوطن العربى من المحيط إلى الخليج :

إن أبطال الحرب العرب يقفون فى الصف الأول فى ساحة التاريخ مع نظرائهم المشاهير من كل دولة وزمان، بفعالهم الباهرة وصفاتهم الجليلة .. تجد فى فعالهم علامات الموهبة والكفاءة من العناية بالاستطلاع والقدرة على استجلاء المواقف والجسارة فى وضع الخطط وتنفيذها والبراعة فى فهم وتحريك الرجال وإذكاء العزيمة فى نفوسهم : . وهذه هى صفوة لباب الحرب :

كما تجد فى صفاتهم حاسة الحرب تدعمها البساطة والشجاعة والذكاء والهدوء النفسانى والصبر على المكاره ، وهذه هى جماع الميزات الأساسية التى ينبغى أن تتوافر للقائد ليحسب فى عداد الأبطال ..

* * *

ولقد خاض العرب حروباً متعددة فى عدة ميادين مختلفة وأمام حشود متباينة فى تنظيمها وأسلحتها وأساليبها فى القتال ، ولقد اقترن الفكر بالممارسة ، والتحم الابتكار بالتجربة فتتابعت التجارب وتزايدت الخبرات فأثرت الفكر العسكرى ونوعت فنون القيادة وطورت الخطط والأساليب وأنشأت ما يمكن أن يطلق عليه : تقاليد الحرب أو مدرسة القيادة .

ولكن أين هى موسوعة الحرب العربية ؟

أين وثائق الحروب العربية .. ؟

الحقيقة أن الموضوع كبير وشاق ، وقد يكفى هنا الإشارة إلى عدد من المراجع :

القرآن الكريم ...

خطب رسول الله صلوات الله عليه وتوجيهاته للسرايا والبعوث ...

كتب أبى بكر إلى قواد جيوشه ...

كتب عمر إلى قواد جيوشه ...

وفيها أرقى ما يطمح إليه الفكر العسكرى من أصول القيادة ومبادئ النصر فى الحروب .

وإشارة ثانية إلى عدد من المخطوطات والمراجع القديمة :

الجامع لأحكام القرآن : لأبى عبد الله القرطبى .

تاريخ الرسل والملوك : لأبى جعفر الطبرى .

سيرة سيدنا محمد رسول الله : لأبى محمد بن عبد الملك بن هشام .

الطبقات الكبرى : لمحمد بن سعد كاتب الواقدى .

تاريخ ابن خلدون : لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون .

الكامل فى التاريخ : لابن الأثير .

فتوح البلدان : لأحمد بن يحيى البلاذرى .

فتوح الشام : لمحمد بن عمر الواقدى .

الفتوحات الإسلامية : للسيد أحمد دحلان .

الإمامة والسياسة ، وعيون الأخبار والمعارف : لابن قتيبة .

عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير : لابن سيد الناس .

كتاب الدرر فى اختصار المغازى والسير : لأبى عمر .
المغـازى : لموسى بن عقبـة .

... وعشرات أخرى من أصداف وجواهر الفكر العربى التى تأخذ بألباب المعاصرين من المتخصصين فى شتى فنون الحرب .

ثم عشرات أخرى من الكتب والمراجع الحديثة بأقلام الأعلام من المفكرين وأصحاب الرأى فى العصور الحديثة ، ومنها :

حياة محمد — الصديق أبو بكر — الفاروق عمر :
لمحمد حسين هيكل

عبقرية محمد — عبقرية أبى بكر — عبقرية عمر — عبقرية خالد :
لعباس محمود العقاد

أشهر مشاهير الإسلام : رفيق العظم .
فجر الإسـلام : أحمد أمين .
دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدى .
دائرة المعارف الإسلامية .

هذا أيضاً إلى جانب العديد من المؤلفات الحديثة فى اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية لعدد من المؤلفين العرب والمستشرقين الأجانب.

* * *

ومن تلك النصوص والتعاليم والرسائل التى ضمتها آلاف المخطوطات والمراجع والكتب العربية يمكن أن نخرج « انسكلوبيديا القيادة والحرب عند العرب » .

هذا هو الخاطر الذى مرّ بى وحكم علىّ أن أقدم كتابى هذا :
وكنت خلال كتابتى أتوقف عند بعض الفقرات وقد بدت كالوهج الذى يخطف البصر ويخلب اللب مما احتوته من صدق وروعة يتضاءل معها ما وصل إلى علمنا من المراجع الأجنبية .. أو أتوقف عند انسياب الحديث عن أحد القادة العرب وقد بدأ عملاقاً بالنسبة لأمثاله ممن وضعتهم بلادهم فى صفوف الدهاة والعباقرة .

وعندما استقر هذا الخاطر فى نفسى ، وجدت أن هناك من سبقنى إليه ، إذ تذكرت رأياً للقائد الأمريكى الجنرال دوجلاس ماك آرثر الذى كان قائداً للقوات فى الباسيفيك .

قال ماك آرثر :

« لو محيت جميع أخبار الحروب من
صفحات التاريخ ما عدا أخبار جنكيز خان
لبقى لرجال الحرب معين لا ينضب
من المعلومات والدروس الحربية » .

وكنت أتمنى لو سبقته فقلت :
لو أننا أغفلنا جميع كتب الحرب التى صدرت فى جميع اللغات لكفانا كتاب يجمع ما خلفه لنا أوائلنا العرب عن القيادة والحرب .

* * *

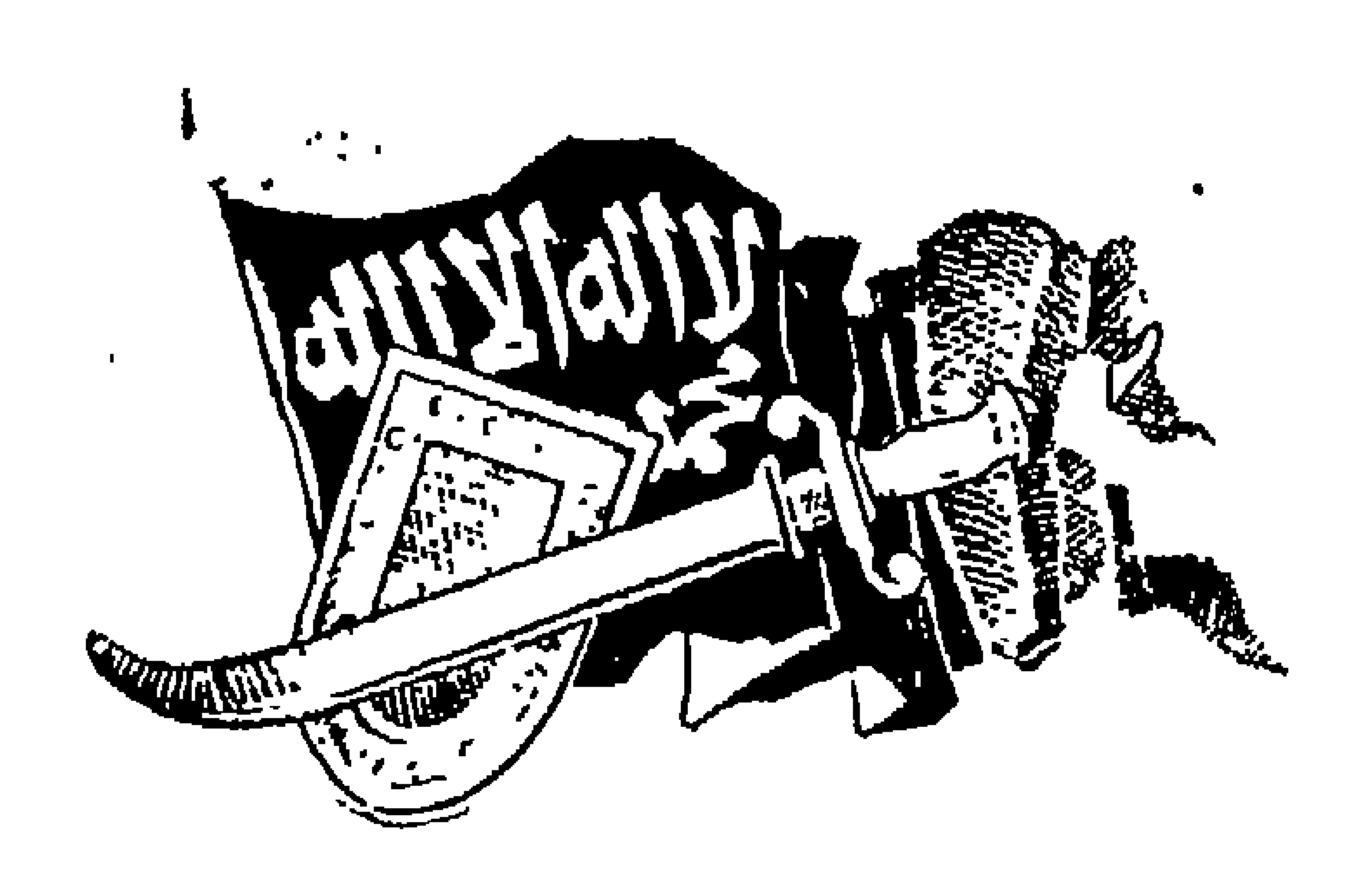
ليتنا نفتح هذا الكتاب .. أعنى ما وصفته فى السطور السابقة بأنه إنسكلوبديا الحروب العربية ؟

ليتنا نعكف على هذا المشروع الكبير فتقدم تلك الموسوعة الحربية العربية التى تضم ما تركه السلف من تراث عظيم عن القادة والمعارك والتاريخ الحربى العربى :

هل لى أن أقول إن الأمة التى صنعت هذا التاريخ العظيم والتى أحرزت هذه الانتصارات الساحقة والتى بنت هذه الإمبراطورية الشاسعة الراسخة بين الخليج والمحيط . . هى ذاتها الأمـــة العظيمة التى حققت النصر المؤزر فى رمضان / أكتوبر ١٩٧٣ واستطاعت أن تنتزع تاريخها وكرامتها وأمجادها من النكسة المؤلمة التى حاقت بها فى غفلة الزمن ، وأنها جديرة بأن تستعيد زمام الموقف وتستخلص النصر وترفع من جديد أعلام الحرية والعزة والبطولة العربية ! ؟ .

السيد فرج

القيادة عند محمد صلى الله عليه وسلم



١ ــ خصائص القائد العظيم

كان محمد صلى الله عليه وسلم هو أول قائد فى الإسلام ...

النبوة كانت أولاً ، ثم القيادة ...

إن محمداً لم ينشأ قائداً ولم يتعلم الحرب فى مدرسة ولم يسع إلى القيادة راغباً أو طموحاً ، ولكنه اضطر إلى القتال اضطراراً حتى يدفع الأذى الذى حاق بأهله وصحبه وحتى يردع العدوان الذى شنه أعداء الإسلام بلا رحمة ولا هوادة .

فالقيادة عند محمد لم تكن هواية ولا احترافاً .

وإنما كانت مسئولية حتمية استوجبتها احتياجات الدفاع عن الدعوة وحماية المؤمنين الذين تعرضوا لعدوان المشركين .

وهو ــ كقائد ــ لم يبدأ أحداً بالعدوان ولم يحارب إلا للدفاع والاتقاء ، بعد أن مارس كافة المحاولات سعياً إلى السلام وتجنباً لسفك الدماء .

فالإسلام دين سلام .

وقد أمر الله رسوله أن يدعوا الناس كافة إلى عبادة الله ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وأن يكون سبيله إلى ذلك الحكمة والموعظة الحسنة وليس العنف والإكراه والقتال :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة

الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك
هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم
بالمهتدين » (١٢٥ ك النحل١٦)

عندما تلقى محمد الرسالة بشر بها عدداً محدوداً من المقربين إليه واستمر فى الدعوة سرًّا زهاء ثلاث سنوات حتى أمره الله أن يظهرها :

« وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض
جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن
عصوك فقل إنى برىء مما تعملون »

(٢١٤ — ٢١٦ ك الشعراء ٢٦)

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد
من الغى » ؛

(٢٥٦ م البقرة٢)

كانت دعوة سلام ولكن قريشاً استقبلتها بالإنكار والعدوان ، وتعرض المسلمون لشتى صنوف الإهانة والتعذيب حتى هاجر بعضهم إلى الحبشة فراراً بدينهم ثم هاجر النبى وصحبه إلى يثرب ، وهكذا لم يقابل العدوان بمثله ولم يحض أتباعه على القتال لأنه كان يطلب الهدى لقومه جميعاً على حين كانت قريش تجد فى إيذاء المسلمين ، وهو لم يلجأ إلى القوة داعياً ولم يتخذ العنف سبيلا ، حتى إن الأنصار فى المدينة ناشدوه أن يأذن لهم بالرد على العدوان ، وقال قائلهم :

« والذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن

على أهل منى غداً بأسيافنا » .

قال عليه الصلاة والسلام :

« لم نؤمر بذلك » .

.. وفى المدينة انتهى الترحال وهدأ البال وانتظم الصف وانتشرت الدعوة وأصبح المسلمون كثرة وقوة ، وكان المرتقب أن يستعدوا للثأر من قريش وأن يقيموا الحد على المعتدين ، ولكن رسول الله كان معرضاً عن الانتقام مبشراً بالسلام .

فلما توسعت قريش فى عدوانها واشتدت فى إيذاء المسلمين وفى تأليب العرب على الإسلام أذن الله للمؤمنين فى قتال الذين يقاتلونهم ويؤذونهم : ؟ .

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن
الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا
من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا
الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض
لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد
يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله
من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

(٣٩ ، ٤٠ م الحج)

ثم وضع القرآن الكريم الفارق الكبير بين الحرب المشروعة وغير المشروعة :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم
ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

(١٩٠ م البقرة ٢) :

فالإذن للرسول بالقتال إنما أعطى لغايات محددة، لدفع الظلم وصد العدوان

وصدع المؤمنون بالأمر فسالموا من سالمهم وحاربوا من اعتدى عليهم، وجاءت كل طلعات جهادهم تشهد بذلك المبدأ السليم ، ضد قريش وضد اليهود ثم ضد الفرس والروم .

ولما كان حامل الرسالة هو قائد المسلمين ، فقد نشأت قيادته فى ظلال المبادئ التى وضعها الإسلام :

لا إكراه

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها

ولا تعتدوا

وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة

* * *

.. وبهذا المنطق ومن هذا المنطلق أخذ القائد محمد صلى الله عليه وسلم يحشد رجاله وينظم صفوفهم ويعبئ قواهم ويعدهم إعداداً رشيداً ، بالسيف والروح ، لكى يدافعوا عن عقيدتهم ويصدوا عن حماهم ويقاتلوا المشركين قتالاً باسلاً حتى النصر أو الشهادة .

وإذا جاء الحديث عن محمد القائد فلابد أن نقوم ميزان القيادة وحده، وأن نقيس بمقاييس العبقرية الحربية دون سواها ومن غير تأثر بصفاته الأخرى الجليلة ، وأن ننظر بعين علمية محايدة ، وهذا مطلب صعب — ولا ريب — ولكنه ضرورى ولا مندوحة عنه لكى يكون الحكم خالصاً والشهادة بينة .

فما هى خصائص القائد العظيم ؟

وما مقدار فهمه وممارسته لمبادئ الحرب ؟

وما هى نتائج معاركه وحروبه ؟

قاد محمد سبعاً وعشرين زحفاً واشترك بالفعل فى تسع معارك : بدر — أحد — المريسيع — الخندق — قريظة — خيبر — فتح مكة — حنين — والطائف .

فهو لم يكتف بإرسال السرايا — وقد بلغت سبعاً وأربعين سرية — ولم يقف عند توجيه دفة القتال فحسب ، وإنما اشترك بالفعل كمقاتل فى كافة المعارك الكبرى .

وقد كشفت هذه المعارك عن اتصافه بكل صفات القائد كما حددها كبار العسكريين وثقاة المؤرخين ، وهى :

المعرفة — الشجاعة — الصلابة — الكتمان — القدوة الحسنة — قوة الخلق .

١ – المعرفة :

قبل أن يتلقى النبي محمد الوحى وينهض بحمل الرسالة كان قد عرف بأخلاق طيبة وخصال كريمة جعلت له مكانة مرموقة واحتراماً عاماً بين أهله وصحبه والمتعاملين معه ، فاشتهر بالأمانة وسعة المعرفة وحسن السعى فى التجارة ، كان دائم اليقظة متنبه الوجدان مملوءاً خيراً وحكمة وبركة.

وقبل أن يتلقى محمد إذن ربه فى قتال الذين يقاتلونه كان قد أحاط بالكثير من المعرفة عن أهله وقومه وخصومه ، كما كان عارفاً بطبيعة الحياة ومجريات الأمور فى زمنه ، وعن الطرق والمواقع والأماكن المشهورة .

وكان قبل توليه القيادة العسكرية قد تدرب على قيادة الرجال وتوجيه الدعوة وتنظيم الاجتماعات وإدارة الندوات والمحاورات ، والقيام بالمناورات والتحركات السرية بعيداً عن أعين وآذان الرقباء ، كان خبيراً بالشعور والعواطف التى تؤثر فى الرجال لإثارة حميتهم إلى مناشدتهم الصبر إلى تبشيرهم بالنصر

أى أن محمداً كان مهيئاً للرسالة قبل نزول الوحى ، وكان أيضاً مهيئاً للقيادة قبل صدور الإذن بالقتال .

وهو قد صف رجاله فى سبيل الله وجعل منهم جماعة مؤمنة صابرة مستبشرة ، فلما دعا داعى النضال أخذ يعبئ رجاله للمعركة بأسلوب القائد الفطن الذى يعرف كيف يقود رجاله إلى النصر وكيف يواجه خصومه إلى نهاية قدراتهم :

ولهذا فإن محمداً القائد كان يملك « طبيعة الجندى » ظاهره وباطنه ؛

كان يعيشها بالفطرة قبل أن تطأ قدمه أرض المعارك ، وعاشها بغير أدنى صعوبة وهو بين الصفوف وتحت الأعلام ، ولم يكن فى طبيعة الرجال ولا فى طبيعة الخصوم ما يعتبر غريباً عليه .

ثم انفتح المجال أمام هذه القيادة الطبيعية الملهمة بالممارسة العملية والإدارة الفعلية والاطلاع الواسع والتحصيل المتواصل ، والتحم الفكر بالتجربة ،وتدعمت المعنويات بالماديات وزادت حصيلة المعرفة الميدانية والدروس المستفادة من المعارك البطولية التى خاضها جنود الإسلام ، وهم يسعون إلى النصر أو الشهادة .

ولا ريب أن أهم ما فى القائد أن يكون على معرفة بصنعته ولكن الثقافة العامة — وليست المعرفة العسكرية وحدها — هى المدرسة الحقيقية للقيادة ، وليس بين عظماء القادة فى التاريخ كله من لم يغترف من نتاج الفكر البشرى والمشاعر الإنسانية ومن لم يكتسب من الاطلاع والتجربة مرونة الذهن وسعة الأفق .

تقول كتب القيادة ، كما تحدث سير عظماء القادة — أن معرفة القائد يجب أن تستند إلى الإدراك العام (Common Sense) والمعرفة بالشئون العامة والأخلاق والمشاعر والعواطف الإنسانية »

وفى رأى حديث للفيلد مارشال مونتجمرى أوف علمين أنه لكى تقود جيشاً يجب عليك بادئ ذى بدء أن تكون واسع العلم بالطبيعة البشرية لأن هذه هى المادة الأساسية التى ينبغى على كل قائد أن يكون

بالغاً أعماقها . وإذا أنت أهملت العامل الإنسانى فلن تكون قائداً ناجحاً .

ومن الدراسات العصرية الموفقة فى تحليل القيادة ما جاء به الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه المشهور « عبقرية محمد » إذ قال عن «عبقرية محمد العسكرية » : « لقد كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة ، يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة ، ويصيب فى اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة » .

وفى المقارنة الدقيقة التى عقدها بين محمد القائد ونابليون القائد ، والمضاهاة بين خطط كل من القائدين انتهى إلى أن محمداً القائد كان سابقاً فى جميع التفاصيل ، وبينهما مئات السنين — والفضل للأسبق — على الرغم من أن الأول كان يقود مئات من المشاة والجمال وحملة السيوف والرماح ،أما الثانى فكان يدفع عشرات الألوف من الفرسان ويستخدم الرصاص والمدافع .

٢ — الشجاعة :

لا جندية بلا شجاعة .

والجندية الحقة تعتمد على الشجاعة فى مواجهة أهوال الحرب ومفاجآت المعارك ، والشجاعة هى التى تدفع الجندى إلى المخاطرة بحياته وإلى خوض معمعان الموت . . وهو يعلم أنه الموت .

وإذا لم يكن القائد شجاعاً فإن نتيجة المعركة تدرك سلفاً قبل بدء القتال ، على حد قول المتنبي :

سراياك تترى والدمستق هـــارب وأصحابه قتـــلى وأمـــواله نهبى

كذا يترك الأعـــداء من يترك القنا ويقفل من كانت هزيمته رعبا

فحب الجبـــان النفسَ أورثه التقى وحب الشجاع النفسَ أورده الحربا

وكذا قول شوقي :

وقام فتـــانا الليـــل يحمى لـــواءه وقـــام فتاهم ليـــله يتلعب

وهل يستوى القرنان ، هذا منعم غرير وهذا ذو تجاريب قلّب

فأعرض عن قـــواده الجند شاردا وعلمـــه قـــواده كيف يهرب

لا غرو أن تكون الشجاعة فى مقدمة صفات العسكريين فهى المعين الذى يزود الجندى بروح الكفاح ، والقوة الكامنة التى تدفعه لخوض الأهوال وانتزاع النصر فى مواطن الشدة واليأس .

وقد حفل تاريخ الحروب بوقائع وأحداث كان للشجاعة فيها النصيب الأوفى قبل أى سلاح آخر من أسلحة القتال ، وإذا كان القائد هو رأس الجيش فإن شجاعته ــ العقلية والبدنية ــ هى القياس الصحيح لحالة الجيش ومستقبل المعركة ، فالقائد الشجاع يرى النصر ماثلاً أمامه ، وهو حين يشير إلى جنده بأمر فإنه يدفع فيهم من قوة عزمه ورباطة جأشه قوة معنوية بالغة التأثير .

إن شجاعة محمد القائد كانت القدوة لرجاله ، فهم يرون فيه شجاعة الفكر وشجاعة القلب ، وهو الذى كان يجهز رجاله للقتال

وهو يعلم أنهم أقل من الخصوم عدداً وعدة وهو الذى كان لا يكتفى بتوجيه القوات من موقع قيادة آمن ، بل كان يشاركهم فى المعركة ويتقدمهم إلى مراكز الخطر :

وقد أثر عن على بن أبى طالب قوله :

« كنا إذا حمى البأس

التقينا برسول الله (صلى الله عليه وسلم)

فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو »

وآية شجاعة محمد أنه كان يتجنب القتال فى غير ضرورة ، كما كان يخوض الحرب غير هياب إذا لم تعد عن الحرب مندوحة .

فلما استقر الرأى على قتال قريش عند « أحد » ، وتغلبت فكرة المبادأة على الانتظار وقال قائلهم : « اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنا منهم وضعفنا » اتخذ القائد قراره ، ولبس لأمته — أى تجهز للحرب — فلما خشى بعض المؤمنين أن يكونوا قد استكرهوا القائد على اتخاذ خطة دون الأخرى وجدوا منه الرأى الحازم والقول الفصل ، ذلك أنه قد اتخذ قراره :

« ما ينبغى للنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل »

وهذا أسلوب عظيم ينم عن ديمقراطية القيادة واحترام الرأى وقوة القرار ، فالجندى — متى استشير — يدلى برأيه فى حرية وشجاعة وأدب، وإن كان مخالفاً لوجهة نظر القائد ، وقد كان رأى الأغلبية المبادرة إلى لقاء العدو ، وقد صدر القرار فلا تردد ولا تراجع :

إذا همّ ، ألقى بين عينيــه عزمه   وأعرض عن ذكر العواقب جانبا

وفى معمان معركة أحد ، وفى قلب دائرة الخطر ثبت القائد — والحراب والسهام ترصده من كل جانب — ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا ، وخلص العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقذف بالحجارة حتى وقع لشقته وأصيبت رباعيته وشج فى وجهه وكلمت شفته فجعل الدم يسيل على وجهه ، ولكنه استمر على موقفه يدرأ المهاجمين له ويدير دفة القتال ، وهذا دليل سكينة النفس فى غمرة الخطر وشجاعة العقل فى ظلمة الهزيمة ، فلما حانت منه التفاتة ووجد أن بعض المشركين يحاولون بلوغ ناحية الجبل دفع عمر بن الخطاب ورهطاً من المهاجرين حتى تغلبوا عليهم وأنزلوهم وسيطروا على هذا الموقع الحاكم .

وفى غزوة حنين اعتذر القائد عن تجنب خطر القتال وشارك رجاله بشجاعة فيما يستهدفون له ، فلما مال ميزان المعركة وأحدق الخطر بالمسلمين كان ثباته نقطة التحول فى الموقف ، إذ اقتدى به رجاله وتحولوا عن الفوضى والفرار إلى الثبات والاستبسال حتى تغير الحال وتحول إليهم النصر .

فالشجاعة عند محمد القائد كانت تدفعه إلى القسوة فى القتال وإلى الإطاحة برقاب الخونة والمارقين وإلى الثبات فى مواطن الشدة والخطر ؛ فإذا انتهت المعركة انتهت معها كل ظواهر وبواطن الخصومة والعداوة وحلت محلها الرحمة والرأفة :

الخيــل تأبى غير « أحمد » حاميا   وبها إذا ذكر اسمه خيلاء

شيخ الفوارس يعلمون مكانه إن هيجت آسادها الهيجاء
ساقى الجريح ومطعم الأسرى ومن أمنت سنابك خيله الأشلاء
إن الشجاعة فى الرجال غلاظة ما لم تزنها رأفة وسخاء

٣ ـ الصلابة :

إن خير القواد من كان شديداً لا تهزه كارثة ولا توهن عزمه مفاجأة : والحرب صنعة قاسية لا يصلح لها إلا الرجل المتين .

وإذا كانت كل أسلحة وأدوات الحرب تتميز بالصلابة والمتانة فلا ريب أن تكون هذه الصفة فى مقدمة صفات القائد ، الذى يتربص به الخطر وتدور حوله المفاجآت وتنزل بساحة قيادته الأحداث والكوارث .

فالصلابة فى العرف العسكرى هى القدرة على تحمل صدمات الحرب وتلقى مفاجآتها وعنها يقول المارشال ويفل :

« عندما تقرأون التاريخ العربى لا ينبغى أن تفوتكم ملاحظة الإخفاق الذى كان سببه غالباً افتقار القائد إلى صفة الصلابة » .

ثم أوضح ذلك فى البيان التالى :

« لقد اعتاد رجال المدفعية اختبار متانة المدافع بإلقائها من ارتفاع معين ، فإذا استمر المدفع صالحاً بعد هذه « الصدمة » تقرر قبوله ، ذلك لأن المدافع الجبلية كانت عرضة للسقوط من التلال والمرتفعات ولهذا يجب أن تكون صالحة للعمل بعد هذه السقطة ، كذلك كانت الأسلحة الصغيرة ـ كالبنادق ـ تطمر فى الوحل لمدة ثمان وأربعين ساعة

قبل أن تختبر لتقدير كفايتها ؟؟

وعقل القائد لا يطمر لمدة ٤٨ ساعة فقط بل أياماً وأسابيع فى أوحال المعلومات غير المؤكدة ورمال العوامل المجهولة ، ويتلقى القائد الصدمات من تحركات العدو المفاجئة أو الحوادث غير المتوقعة مما لا يحدث مثلها للمدافع حين تقع من ارتفاع مائة قدم » .

وتاريخ محمد القائد يؤكد أنه كان متصفاً بالمتانة .

فقد كان يتخذ قراره الشجاع بالمضى إلى الحرب غير هياب ولامتزعزع الثقة .

وكان لا يكتفى بإدارة المعركة بل كان يخوضها كما يخوضها رجاله المحاربون .

فإذا اشتدت رحى القتال كان يُرى فى دائرة الخطر يدفع بما فى يده من سلاح .

وإذا دارت دائرة الحرب على جيشه لم تفارقه شجاعته ولم يبارحه ثباته وإنما يتلقى الصدمة ويدرأها ويحث رجاله على الثبات ويلوّح لهم ببشائر النصر .

وفى معركة أحد — على سبيل المثال — أحدق به الخطر وتسابق الخصوم إلى ضربه وطعنه ومحاولة قتله ، ولكنه استمر فى القتال وتبادل الضربات ولم تفته محاولة العدو اعتلاء الجبل ، فنظر إلى عمر بن الخطاب وأشار إليه فحمل مع بعض الرجال البواسل حتى احتلوا قمة الجبل ودرأوا الخطر ، وبذلك تغير الموقف من الهزيمة المهينة إلى النصر المؤزر

وكذلك وقعت له مفاجأة فى معركة حنين كادت تقضى على كل أمل لولا صلابته وشجاعة نفسه فقد ثبت فى الموقف الشديد وعلم رجاله الثبات .

وكان محمد هو القائد الرزين الذى يدرس الموقف بعناية وفطانة ويستشير صحبه حتى إذا اتخذ قراره لم يرجع عنه .

وكان هو القائد الذى لا توهن عزمه أحداث الحرب وصدماتها ، ولا تحوله عن هدفه أى طوارئ أو مفاجآت .

٤ ــ الكتمان :

من المأثور عن الكاردينال ريشليو قوله : إن الكتمان هو روح الأعمال .

وقد اعتبر الكتمان أو السرية من لوازم العمليات الحربية ، وأيضاً من صفات القادة الكبار ، ولم يكن هناك من يضارع نابليون فى صمته ، وقد علم قواده أن يحيطوا أنفسهم بمثل صمت الرهبان ، ولم تكن شفاههم تنطق إلا بالقرارات فى حينها ولا تعلن عن أية تحركات أو أوامر قبل الشروع الفعلى فى تنفيذها .

فالكتمان يحفظ أسرار الخطط والعمليات الحربية حتى لا يعلم بها العدو ، ولذلك استخدمت الرموز وحددت النسخ التى تصدر بأوامر العمليات وتعليمات التحرك وأودعت الخزائن كالجواهر التى لا تقدر بثمن ، وأنشئت إدارات المخابرات للحصول على المعلومات عن العدو ، وأيضاً

الحيلولة دون وصول المعلومات إليه ، إلى غير ذلك من الإجراءات التى تحفظ الأسرار الحربية حتى لا يعلم بها العدو ، وحتى يمكن تنفيذ الخطط والعمليات وما فيها من تحركات مفاجئة وتوقيتات غير متوقعة .

أما بالنسبة لمحمد القائد فقد كان الكتمان من خصائصه البارزة منذ تلقى رسالة ربه إلى الناس كافة ، فقد بشر عدداً محدوداً من المقربين إليه الموثوق بقدرتهم على حفظ السر وعلى الاحتياط فى القول والعمل ، ونزلت الآية :

« وأنذر عشيرتك الأقربين »

واستمرت الدعوة سراً زهاء ثلاث سنوات حتى أمره الله أن يظهرها.

وفى سيرة محمد العسكرية تتضح عنايته بالسرية والأمن ، وقد كان يختار الفرصة التى يجهر فيها البعث أو الغزو ويحدد الطريق ويضع الخطة ، ثم يسربها للقائد فى الوقت الملائم قبيل التحرك أو بعده ويزوده بالوصايا والتوجيهات اللازمة .

وفى بعض المواقف التى تحتاج إلى المزيد من السرية والكتمان كان يعطى القائد رسالة مغلقة لا يفتحها إلا بعد وصوله إلى مكان محدد أو بعد وقت معين حيث لا خشية بعد ذلك من معرفة محتوياتها ، ومن ذلك بعث عبد الله بن جحش ، فقد جهزه القائد للتحرك دون أن يعلم أحد من المحيطين به شيئاً عن اتجاه التحرك وهدفه ، ثم سلمه رسالة وكلفه ألا يفضها قبل مسيرة يومين — حيث لا يكون بعدها خطر من الإعلان وحتى يصبح الرجال على مقربة من مسرح العملية المطلوبة — فلما سار

عبد الله يومين فض الرسالة وقرأ فيها :

« سر حتى تأتى بطن نخلة ، على اسم الله وبركاته . لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك . وامض فيمن اتبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم » .

إن بعث عبد الله بن جحش كان بمثابة دورية استطلاع ، لابد أن يحاط مسارها وهدفها بالسرية التامة ، لأن مهمتها هى الحصول على معلومات عن العدو ، فاذا بلغه خبرها أمكنه أن يظفر بها ويقضى عليها لأنها ليست معدة للقتال ، لا عدداً ولا غاية .

٥ — القدوة الحسنة :

جعل الله نبيه صلى الله عليه وسلم قدوة للمؤمنين يأخذون عنه ويتمثلون به ويقتدون بفضائله وأفعاله :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة »

كذلك كان محمد القائد قدوة لرجاله بما كان عليه من يقظة وثبات وإقدام وصبر وتحمل .

وإذا كان القائد هو مطمح أنظار وأفكار جنوده فإن القدوة تعمل عملها وتؤثر فى عقليات ونفوس ومشاعر الجنود ، ولذا يقال :

« مثلما يكون القائد تكون الجنود »

من واجب القائد الذى يرتب جنوده ويحركهم ويتطلب منهم النظام والإقدام ويدعوهم إلى الصبر على المكاره والثبات فى مواطن الشدة أن

يكون هو نفسه متحلياً بهذه الصفات :

وقلدوا أمركم لله دركمو رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا

وقد كان محمد القائد نموذجاً لرجاله بحق ، ومن أمثلة ذلك :

١ — عندما خرج من المدينة إلى أول معركة ضد قريش كان مجموع رجاله ثلثمائة وخمسة وعدد الظهور سبعين بعيراً ، فكان لكل ثلاثة رجال بعير واحد يعتقبونه — أى يركبه كل منهم مرحلة ويمشى مرحلتين — فطلب شريكا القائد أن يتنازلا عن حقهما ويتركا له البعير فيركب هو ويقطعا هما المسافة مشياً . ولكنه أبى وأصر على أن يسير كما يسير كل منهما شوطين ويركب شوطاً .

وقال :

« ما أنتما بأقوى منى على المشى ، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما »

وفى التعليمات الحديثة للقيادة نرى درساً بالغ الأهمية ألقاه على الضباط الفيلد مارشال وليام سليم :

« فى ساعة حرجة من ساعات التقهقر صادفت إحدى السرايا تفتح طريقاً فى الغابة وأنبأونى أن الحالة سيئة فألقيت عليهم نظرة واحدة وقلت لنفسى : يا إلهى إن الحالة أسوأ بكثير مما كنت أظن . .

وسرت حول ركن الثغرة فوجدت الضباط يهيئون لأنفسهم الشاى ! حقيقة كانوا مجهدين كالجنود ، ولكن ليس هذا هو لب الموضوع . . لأن الضباط وجدوا ليقودوا الجنود ! ؟

وإنى أناشدكم بصفتكم ضباطاً ألا تأكلوا أو تشربوا أو تدخنوا أو تجلسوا . . أو حتى تستندوا إلى شجرة : حتى تتأكدوا تماماً أن جنوكم قد هيأت لهم الظروف أن يفعلوا ذلك ، قبلكم » ! ؟

٢ — أخذ محمد القائد برأى سليمان الفارسى فى حفر الخندق عند الثغرة التى خيف أن يهجم منها المشركون على المدينة ، فأمر بحفر الخندق واشترك بنفسه فى الحفر ، أى عمل بيديه كما طلب من رجاله أن يفعلوا .

٣ — إن محمدا القائد كان لا يقنع بالقيادة من موقع آمن — وكان هذا حقاً له ، وكثيراً ما نصح به — ولكنه كان يشارك رجاله فى جميع العمليات ويتقدم إلى مواقع البأس والشدة ويقاتل بجرأة وبسالة ويستهدف الخطر ، وإذا رجاله يقتدون به ويقدمون إقدامه ويلتفون حوله يرجون حمايته وتلقى الضربات عنه .

كما أنه ثبت فى وقعة حنين ، حين طارت النفوس شعاعاً وضعفت العزائم أمام بأس الخصوم ، فلما وجدوا قائدهم ثابتاً صابراً مناضلاً تأثروا بموقفه وحذوا حذوه وعادوا إلى مواصلة القتال حتى عدلوا الموقف وأحرزوا النصر .

إن الجنود — كل الجنود — يتأثرون بقائدهم ويقتدون به ، فالقائد هو المثل الأعلى ، والمثل خير معلم ، وكيفما يكون القائد يكون الجنود :

وفى الحديث الشريف :

كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

ويعتبر هذا الحديث بمثابة البند الأول فى دستور القيادة : فقد أوضح

أهمية القائد فى كل رتبة من رتب القيادة وفى كل معترك من معارك الحياة . فكل قائد مسئول عن الرعية ، وكل رعية فى حاجة إلى قائد ، والقادة — معاً — مسئولون مسئولية جماعية عن الرعية .

٦ — قوة الخلق :

قال تعالى جل شأنه مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام .

« وإنك لعلى خلق عظيم » .

وقال عليه الصلاة والسلام .

« أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وهكذا تولى قيادة المسلمين فى أول عهدهم بالقيادة والحرب قائد على خلق عظيم .

ثما هو وضع « الخلق » فى قائمة صفات القادة فى جميع الأزمان .

لقد أجمع الثقات والخبراء فى شئون القيادة على كثير من خصائصها، ولعل أهم ما يتجمع لطبيعة القائد فى صفتها المثلى : الشجاعة ، الحزم ، الصراحة ، الغيرة على الشرف ، الطاعة ، الإيمان بالحق وحب الإنجاز .

لا بد أن يحتل الشرف العسكرى اعتباراً سامياً فى نفس القائد ، فالخلق مقدم على الذكاء، وقد كانت قوة الخلق أهم خصائص القواد العظام .

والجندية تقوم على الشجاعة والغيرة ، وكان يحرم من شرف الجندية كل من ثبت عليه التراجع أو النكوص فى كلمة الشرف التى أخذها على نفسه .

إن « شرف الجندية » غال ، ولابد أن يتخذ القائد سلوكاً يميزه عن بقية الناس ويجعله قدوة لرجاله ، وإن الشعار الذى يجب على القائد أن يتخذه لنفسه ولجنده هو :

« الموت ، ولا العار »

وإذا أوذى شرف القائد فلا شىء يكفر عنه ، حتى الموت .

إن القائد العظيم — كما وصفه مارشال فايول — هو الذى يجمع إلى متانة الخلق سلامة الذوق ، وكثيراً من التحصيل .

ويقول مارشال ويفل :

إن القائد الناجح يجب أن يكون على خلق ، إنه أمام هدف يحتاج تحقيقه إلى الشجاعة وقوة العزيمة .

والحق أن القائد فى حاجة لكل فضيلة بشرية ، ولكن هناك صفات أكد عليها واتفق على أهميتها كبار الباحثين فى سير القادة ، ومنها الإرادة وهى التى تجعل القائد يتخذ قراراً وهو مقدر لنتائجه ، والثبات على الجهد وهو الذى يقضى على التردد ويذلل كل صعب ، وما العبقرية إلا جهد عظيم ، وتسعون فى المائة منها عرق ، ثم الشجاعة الفطرية التى لا يهتز صاحبها أمام الكوارث ولا يطير لبه بفعل المفاجآت .

وقد راجع المارشال مونتجمرى وقابل بين صفات ثلاثة من القادة — يعتبرهم هو ثلاث نماذج للقادة العظام — وهم : موسى ، وكرمويل ، ونابليون بونابرت وخرج من هذه الدراسة بالنتيجة التالية :

« القيادة هى التصميم على العمل بروح تستحوذ على ثقة الجنود

وإن قياس قدرة القائد تتوقف على أمرين :

الأول : التصميم على مواجهة الرجال والأحوال التى تحيط به والقدرة على تجميع نفسه ورجاله بأقصى قوتهم لإحراز غرض معين ، دون أن يحوله أى شيء عن ذلك الهدف .

والثانى : قوة خلقه وعظمة شخصيته التى تجعل رجاله يضعون ثقتهم فيه ويؤكدون قدرته على قيادتهم إلى النصر .

وقال مونتجمرى :

إن الميزة الكبرى لموسى وكرمويل ونابليون هى :

إيمان الجنود بالقائد ، وثقة القائد بنفسه ورجاله وهدفه .

إن القائد الذى لا يهتم بالناحية الإنسانية هو قائد فاشل .

وإذا كان هذا هو موقع الخلق من قائمة الصفات الأساسية للقائد ، فإن محمداً القائد صلى الله عليه وسلم يعتبر من هذه الناحية فى رأس القائمة بين كبار القادة فى جميع الأزمان .

٢ ــ نظرات محمد فى القيادة والحرب

إن القائد الذى لم تكن الحرب حرفته أو هويته ، والذى كان يدعو إلى الإسلام والسلام ، لم يكن يخشى الحرب إذا فرضت عليه ولم يعد منها بد ، فكان يمضى إليها موفور العزم مكتمل العدة كبير الثقة .

وقبل أن يؤذن له بقتال الذين يقاتلونه كان محمد يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة ولم يلجأ إلى الشدة والإكراه ، والذى حدث هو أن قريشاً

أعرضت عن دعوته وناصبته العداء ونكلت بأصحابه وأتباعه وأصابتهم فى أموالهم وأنفسهم فأنزل الله آيته الكريمة « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » ثم توالت الآيات البينات تعاليم هدى للمحاربين ودستور سلام وحرب :

« وإن جنحوا للسلم فاجنحْ لها

« وأعدوا لهم ما استطعتمْ من قوة

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوْا فلا عدوان إلا على الظالمين .

« إن الله اشترى منَ المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنةَ

« يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون .

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجةً عند الله وأولئك هم الفائزون .

« انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله .

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً .

« إذا لقيتم الذينَ كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبارَ .

« يا أيها النبى حرض المؤمنينَ على القتال ، إنْ يكنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهونَ .

* وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .
* فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين .
* وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين .
* ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله .

وهكذا فإن محمداً القائد دخل الحرب وهو على بينة منها يعلم أنها شر لابد منه وخطر تتحتم منازلته ، وأنه حاول أن يتفاداها فلم يستطع ، وأنه قد صار عليه أن يخوضها مستعداً بأقصى ما يصل إليه من قوة ، وأن يحرض المؤمنين على القتال ، وأن يوصيهم بالصبر على المكاره ، وأن يكون قدوة لجنوده فى الجهاد والجود والشجاعة والتحمل . .

ثم إنه يعلم أن الحرب صنعة تعتمد على عناصر لابد من توافرها وقوى لابد من تجهيزها وصفات وخصائص لابد من التحلى بها ، وأن الحرب لها سلاحان ؛ سلاح مادى وسلاح معنوى ، وأنه لابد لكسب الحرب من أصول ومعلومات وفطانة .

لم تكن احتياجات الحرب مذكورة فى كتاب ولا مبادئها معروفة لهذا النفر من الذين آمنوا ، ولكنها كانت أشياء جديدة عليه وعليهم ، ولهذا كان عليه أن يفكر ويبتكر ويجرب ويمارس . . كان عليه أن يضع الخطط والنظم والتعليمات والتوجيهات .

كان عليه ، إذن ، بعد أن أصبح فى مركز القيادة أن ينظم رجاله وأن يختار لكل منهم مكانه ودوره ، وأن يستقرئ ويستخدم ما لديهم من خصائص ومزايا ، وأن يشاورهم فى خططه حتى يعودهم التفكير والرأى ويحثهم على المشاركة والشعور بالمسئولية واقتحام الأخطار .

كان هو القائد والمعلم والمخطط والموجه ، كما كان هو واضع المبادئ النظريات والأخلاقيات التى عمل بها قواده وخلفاؤه ثم صارت للمسلمين جميعاً من بعده رسالة ودستوراً .

ومن نظرات محمد القائد ما نقدمه على سبيل المثال :

١ ــ مشروعية الحرب .

٢ ــ الديمقراطية فى الجيش .

٣ ــ اختيار الشباب للقيادة .

٤ ــ أهمية الاستطلاع والمعلومات .

٥ ــ الخدعة والمفاجأة .

٦ ــ قوة الروح المعنوية .

١ ــ مشروعية الحرب :

كان رأى محمد القائد أن السلام خير وأن الحرب شر ، وأن الحكمة أولى من الإكراه ، وأن الاعتداء على القوم الآمنين جريمة ينهى عنها الدين وتمقتها الإنسانية .

ولا تكون الحرب مشروعة قبل استنفاد كل الوسائل السلمية ،

فإذا ما وضح أن العدو مبيت للشر سادر فى أطماعه المجنونة مستمر فى أعماله العدوانية ، لم يعد بد من رد الصاع صاعين ولم يبق غير الحرب بكل الإمكانيات وبكافة الأسلحة وبمنتهى الشدة وبأقصى التضحية .

لقد دعا الإسلام إلى السلام ونهى عن الإكراه ولم يلجأ الرسول إلى القوة داعياً ولم يلجأ إليها مدافعاً حتى تصاعد العدوان وأشتد الكرب واستفحل الخطر فأذن الله للمؤمنين فى قتال الذين يقاتلونهم ويعتدون عليهم .

والمسلمون لم يلجأوا إلى السيف إلا للدفاع عن حرياتهم وأمنهم ولم يدخلوا الحرب اختياراً ولكن اضطراراً ، ولم يعمدوا إلى استخدام القوة إلا ردعاً للعدوان أو تثبيتاً للحق أو دفاعاً عن العرض والكرامة ، وكان شعارهم فى الحرب من قوله تعالى :

وقاتلو فى سبيل الله الذين يقاتلونكم
ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » .

ومجمل القول فى حروب الإسلام أنها لم تكن حروب هجوم واعتداء وإنما كانت حروب دفاع ووقاية لدفع الأذى وتأمين الدعوة .

والحروب الإسلامية كان باعثها الجهاد فى سبيل الله وفى سبيل نشر دينه الحنيف وحماية الدعوة ومواجهة طغيان الظالمين والمعتدين .

والمسلمون لم يتخذوا القوة العسكرية وسيلة لإخضاع الخلق وقهر البلاد، وإنما سالموا من يسالمهم — كما فعلوا مع الحبشة — وحاربوا من بدأهم بالعدوان ، كما فعلوا مع قريش ومع يهود المدينة الذين نقضوا العهد ، ومع

الفرس ومع الروم الذين كانوا يهددون بالإغارة على الوطن الإسلامى وقتلوا وفود السلام .

وقد بلغ الشاعر شوقى غاية ما يقال فى مشروعية الحرب ، فى همزيته النبوية ومنها قوله :

الحرب فى حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء
والحرب من شرف الشعوب فإن بغوا ... فالمجد مما يدعون براء
والحرب يبعثها القوى تجبراً ... وينوء تحت بلائها الضعفاء
كم من غزاة للرسول كريمة ... فيها رضى للحق أو إعلاء

٢ ــ روح الديمقراطية :

كان جيش الجهاد الإسلامى جيشاً من الأحرار يؤمنون بالدعوة ويدركون ما يدبر لهم من خصومهم ، ويتوقون لقتال الذين يقاتلونهم ويسعى كل مجاهد ليحصل على أحدى الحسنين : الظهور أو الشهادة .

لم يكن جيشاً مساقاً بالرغم منه ولا متجهاً إلى حيث لا يعرف ولم يكن جيش غزو وأطماع وقهر وعدوان .

ومثل هذا الجيش يكون على علم بكل فكرة وخطة وهدف ، ولهذا فإنه يقدم عن اقتناع ويحارب بلا هوادة ويقبل على التضحية باستبسال واستبشار .

وهذا الذى كان عليه الجيش الإسلامى هو ما تسعى إليه الجندية الحديثة ، لكى تدخله على الجيوش العصرية فتذكي روح الديمقراطية

وتثير فى العقل عوامل الإدراك والثقة والاقتناع ، وتحاول أن تعطى الضباط والجنود تفاصيل المعلومات وجزئيات الخطة وفرص المناقشة وإبداء الرأى وحرية العمل فى نطاق الخطة العامة .

وبهذه الحقيقة — التى تدرس اليوم فى الكليات العسكرية وتحاول القيادات الكبرى تقريرها — كان محمد القائد يمارس المشاركة والمشاورة مع رجاله .

قبل وقعة بدر جاءت الأخبار بأن قريشاً تستعد للمسير وتبيّت للإحداق بأصحاب محمد والإجهاز عليه ، فأخذ القائد يجمع رجاله ويشاورهم فى الأمر ، هل يقدم على حرب قريش أو يحجم ؟

بدأ المحاورة المقداد بن عمرو ، قال :

يا رسول الله ، امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق لنكونن من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك أو يفتح الله لك بالنصر المبين .

وكان رد القائد : خيراً ، ودعا له بخير .

وقال عمر :

يا رسول الله إنها قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت ، والله لتقاتلنك ، فتأهب لذلك أهبته وأعد لذلك عدته .

والتفت القائد إلى الأنصار يريد أن يعرف رأيهم ، قائلاً :

« أشيروا عليّ أيها الناس »

فتقدم سعد بن معاذ ، الأنصارى ، وقال :

« والله لكأنك تريدنا يا رسول الله »

قال : أجل

قال سعد :

« لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله كما أردت فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد .

وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً .

إنا لصُبُر عند الحرب ، صُدُقٌ عند اللقاء .

لعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

فانهض بنا على بركة الله »

وهكذا ، بعد أخذ الرأى واستكمال الشورى قرر القائد أن يواجه قريشاً وينازلها ، وقال :

« سيروا على بركة الله وأبشروا

فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين

والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم »

° °

وفى المكان الذى اختارته القيادة ، قريباً من بدر ، بدأ القائد

عملياته الاستطلاعية، وأخذ يعرض الموقف على رجاله — كما يفعل القائد العام مع أركانىّ حربه أو مجلس الحرب— فتقدم منه الحباب بن المنذر وهو يجوس ببصره حول الموقع — وقال :

« يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزل أنزلكه
الله ليس لنا أن نتقدمه ولا أن نتأخر عنه . . أم
هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » .

وجاءه رد القائد :

« بل هو الرأى والحرب والمكيدة »

قال الحباب :

« يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل فانهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من القُلُب ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه فنشرب ولا يشربون » .

وفكر القائد بسرعة وهو يتابع هذا التخطيط الجديد ، وقال :

« لقد أشرت بالرأى »

ونهض القائد فعدل الخطة وسار ومن معه حتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ثم أمر بالقُلُب فغورت وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه فلئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية .

هذا مثل من أجلّ أمثلة القيادة الرشيدة ،فإن محمداً القائد لم ينفرد بالرأى ولم يستقل بوضع الخطة — وهو على ذلك قدير — وإنما أخذ برأى أصحابه واستشارهم حتى حصل على الرأى الصائب وجعلهم يفكرون

ويقترحون ويشاركون ، ثم إنه نزل عن رأيه أمام جميع رجاله فشهدوا وشهدت الأجيال المتتابعة وشهد فن القيادة بأن محمداً القائد كان خير قدوة،وكان أجل وأشرف وأعقل من قاد الرجال وجمع القلوب وحشد الأفكار وأكد الديمقراطية ورفع لواء الحرية .

٣ - اختيار الشباب للقيادة :

الشباب فى الحرب مناط النشاط والحيوية وبراعم الشجاعة البدنية والمتانة .. وهى القدرة على تحمل الصدمات وتلقى المفاجآت .

ولهذا كان اليونان والرومان القدماء يختارون لجيوشهم القادة الشبان الذين يستطيعون أن يمتطوا صهوات الخيل عشرين ساعة فى اليوم ، ثم يحيطونهم بهيئة أركان حرب من الرجال الكبار ذوى الخبرة والدراية بالمسالك الجبلية وبالتجارب السابقة فى الحروب .

وقد أحرز كبار القادة فى التاريخ شهرتهم الحربية وانتصاراتهم الخالدة وهم فى عز الشباب وضحوة العمر،وتمت أعظم الأعمال تحريكاً لنفوس الجماهير على أيدى شباب بواسل يجمعون بين القوة والاندفاع والفطانة ، فالشباب هو عهد البطولة .

كان الإسكندر المقدونى فى الخامسة والعشرين من عمره عندما أحرز النصر العظيم فى معركة « أرابيلا » إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ ، فقوض ملك فارس أقوى إمبراطورية فى ذلك الزمان القصى ، وغزا مصر وبابل وفتح الهند .

وعبر هانيبال البحر وصعد الجبل وأقدم على مجازفة أو عمل من أعمال الشياطين . . وغزا إيطاليا اولكنه بعد ستة عشر عاماً من انتصاراته الكبرى لم تعد لديه القوة اللازمة لقهرالشاب الصاعد : سيبيو . وفاز الشاب الجديد على الشيخ صاحب الأمجاد فى معركة « زاما المشهورة » .

وهكذا لمعت فى ريعان الشباب أسماء القادة العظام فى التاريخ : بلزاريوس ، وفردريك الأكبر — أعظم جندى فى أوربا — وجاكسون وجوستاف أدولف وتورين مارشال فرنسا فى الثانية والثلاثين — وكونديه — القائد العام فى الثانية والعشرين . . وسابوتى وشارل الثانى عشر والبرنس أوجين الذين كانوا جنرالات قبل سن الثلاثين .

وحارب نابليون أوربا وهو فى شرخ الشباب وأخذ يحرك التيجان على رقعة الشطرنج، ويضع تصميماً جديداً لأوربا من صنع خياله وبحد سيفه . وكان من رأى نابليون ألا يولى القيادة من تجاوز عمره الخامسة والأربعين . . ولعل ذلك كان سر انهزامه فى ووترلو ، فقد كان عبر الحد الذى قرره لأعمار القادة . . كان قد بلغ السادسة والأربعين فى تلك المعركة الفاصلة التى اشتهرت بكلمته الذائعة. «خسرنا كل شيء إلا الشرف » .

وإذا نظرنا إلى قائمة القادة العسكريين خريجى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم وجدنا أمثلة لا يحصيها عد لقادة ينبضون شبابا وشجاعة وحكمة وإيماناً ، قادة ذوى أخلاق ومبادئ ومثل . . كانت سيوفهم تقطر دماً وقلوبهم تفيض بالخير والرحمة .

فى قيادة محمد كان الشباب الوثاب موضع العناية ومعقد الرجاء . . ولقد تمرسوا بالحرب واشتركوا فى وضع الخطط وتدربوا على القيادة ، ولمعت أسماء على وخالد وعمرو والزبير وأسامة .

وقد كان تعيين أسامة بن زيد وهو فى العشرين من عمره قائداً لجيش المسلمين — وفيه أبو بكر وعمر وكبار المسلمين — شيئاً يثير التساؤل والاندهاش ، وإنما ولاه القائد الأكبر ليجعل له من فخار النصر ما يجزىء به استشهاد أبيه زيد بن حارثة فى « مؤته » ، وما يعوّد الشباب الاضطلاع بتبعات القيادة ، وكان آخر ما أمر به قبل وفاته :

« أيها الناس ، أنفذوا بعث أسامة » .

ولقد كان أسامة خليقاً بالقيادة كما كان أبوه خليقاً بها ، فحمل اللواء واندفع بشبابه الوثاب يقطع البيد ويتخطى المفاوز تحت وطأة الحر الشديد والسرعة المطلوبة حتى بلغ البلقاء ونزل بعساكره فى « مؤته » ومنها أغار على « آبل » وقبائل « قضاعة » وأعمل فيهم القتل والحرق والغنم فى عملية خاطفة وهجمة جريئة فى عماية الصبح .

٤ — أهمية الاستطلاع والمعلومات :

عندما استقر مقام المسلمين فى المدينة وأدرك محمد القائد أن قريشاً تتجهز للقضاء على مجموعة المسلمين وإخماد الدعوة ، أخذ يوجه اهتمامه لمعرفة استعدادات قريش وتحركاتها وقوافلها وأموالها وما تعده من أفراد وأسلحة ومؤن حتى يكون على بينة من أمرها وعلى علم بخططها ، وكان

من وسائله فى ذلك إرسال أطواف وسرايا تتلمس المعلومات وتكشف المؤامرات وترصد التحركات .

هذا التفكير الذى اهتدت إليه طبيعة القيادة فى محمد صلى الله عليه وسلم ، والذى يعنى أنه لا بد قبل مواجهة العدو من معرفة تجهيزاته ، هو التفكير الذى تأخذ به الجيوش الحديثة عن طريق الجاسوسية والمخابرات والطابور الخامس قبل احتدام القتال ، وأيضاً بعث دوريات الاستطلاع ودوريات القتال للحصول على المعلومات أو القيام بعمليات ميدانية محدودة كتدمير موقع منعزل أو تفجير مرفق حيوى أو القبض على أسير قد يدلى بأسرار لها قيمتها..إلى غير ذلك من أغراض الدوريات.

وقد كان أول بعث بقيادة حمزة بن عبد المطلب — فى ثلاثين راكباً من المهاجرين — فالتقى هذا الطوف بجماعة كبيرة من قريش وكاد يحتدم بينهم القتال لولا تدخل قوم محايدين موادعين ، ثم كان بعث عبيدة ابن الحارث والتقاؤه بجماعة يقودها أبو سفيان ، وهو البعث الذى اشتهر برمية واحدة من قوس سعد بن أبى وقاص ، فكان أول سهم رمى فى الإسلام .

كان محمد القائد يشترك بنفسه فى كثير من الأطواف التى ترصد تحركات قريش واليهود وأخبارهما وتعود بالمعلومات التى لا غنى عنها قبل وقوع الصدام .

ومن البعوث المشهورة بعث عبد الله بن جحش ، فقد اختاره القائد وأسند إليه مهمة سرية محددة ، وسلمه كتاباً أمره ألا ينظر فيه

حتى يسير يومين – كما هو الحال فى الأوامر السرية المختومة التى لا تفض إلا فى وقت أو مكان معين – وتضمن الكتاب :

« سر ، حتى تأتى (بطن نخلة) على اسم الله وبركاته ، لا تكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك، وامض فيمن اتبعك حتى تأتى بطن نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً أو عيراً لقريش وتعلم لنا من أخبارهم » .

. إذن ، هى دورية استطلاع مكلفة بمهمة سرية لا يكشف عنها القائد قبل بلوغه موقعاً معيناً ، ولا يشاركه فيها غير رجال مقتنعين بها قديرين عليها وقد تحددت مهمتها تماماً وهى الحصول على معلومات ، من غير أن تكشف عن نفسها أو تتورط فى قتال .

لكن الدورية وقعت فى خطأين ، أحدهما عسكرى والآخر دينى ، فقد تعدت حدود التعليمات وجاوزت المهمة – وهى مجرد الاستطلاع – واشتركت فى قتال مع قافلة لقريش فأصابت غنيمة وعادت بأسيرين ، وكان ذلك فى شهر شعبان .

المخالفة العسكرية كانت تحولاً عن الهدف المحدد والمخالفة الدينية كانت الحرب فى شهر حرام .

لذلك يعتبر بعث عبد الله بن جحش من الناحية العسكرية اختباراً لتقدير مبدأ هام من مبادئ الحرب وهو المحافظة على الغرض . لقد حدثت مخالفة وعلم بها المسلمون وأدركوا خطأ مخالفة الأمر وأهمية المحافظة على الغرض .

أما من الناحية الدينية فيعتبر مفترق طرق فى سياسة الإسلام وفيه نزلت الآية الكريمة :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردونكم عن دينكم إن أستطاعوا » .

وقبل التحرك لملاقاة قريش – فى غزوة بدر الكبرى – بعث القائد بطوف من نبهاء المجاهدين : على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد ابن أبى وقاص فتسللوا نحو قريش يتلمسون أخبارها ويتكشفون تجهيزاتها ، فوقع فى أيديهم رجلان شاهدان فأدليا بمعلومات قيمة ، إذ حددا مواقع قريش وكم ينحرون : « يوماً تسعاً ويوماً عشراً » فاستنتج القائد أن القوم ما بين التسعمائة والألف وقال :

« هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ كبدها » .

وهكذا سبق محمد القائد بمبدأ الاستطلاع والحصول على المعلومات المتيسرة عن العدو حتى يستطيع أن يقدر الموقف ويسبر قوة خصمه ويستعد لملاقاته .

٥ – الخدعة والمفاجأة :

من مآثر توجيهات محمد القائد قوله :

« وادرعوا الليل فإنه أخفى للويل »

والمعنى أن يتخذ من الليل درعاً يحمى القوات من نظر العدو ونيرانه حتى تفاجئه وتنزل به الويل .

وهذا سبق بعيد العهد لما تدعو إليه اليوم مناهج التدريب الحديثة ، فى أهمية التدريب الليلى وتحقيق مبدأ المفاجأة وضرب العدو من حيث لا يتوقع .

عندما ظهر الخطر على الحدود بسبب تحركات الروم ، بعد الذى كان بينهم وبين المسلمين فى « مؤتة وفى تبوك » اتخذ القائد قراراً بتجهيز جيش كبير لحماية التخوم العربية ودرء خطر الروم ، وجعل على رأس هذا الجيش قائداً شاباً لم يبلغ العشرين من عمره هو أسامة بن زيد ، وزوده بالنصائح والتوجيهات .

لقد أمره أن يوطئ الخيل تخوم « البلقاء » و « الداروم » من أرض فلسطين ،وأن ينزل على الأعداء فى عماية الصبح وأن يمعن فيهم قتلا وأن يحركهم بالنار وأن يتم ذلك دراكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه ، فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانماً مظفراً .

وواضح من ذلك التوجيه أنه يتطلب ثلاثاً :

* الهجوم فى الفجر
* السرعة
* مفاجأة العدو

وهي جميعاً من متطلبات المعارك العصرية وخططها المؤثرة .

٦ ـ الروح المعنوية :

إذا كان اجتهاد المجتهدين من أصحاب الفكر والرأى فى شئون الحرب قد انتهى حتى عهد نابليون بونابرت إلى مبادئ الحرب السبعة المشهورة، فقد كشفت الحروب فيما بعد ذلك عن مبدأ ثامن ، هو الروح المعنوية :

وهذا المبدأ الجديد ـ الثامن فى مبادئ الحرب ـ التى لا غنى عنها لإحراز النصر ـ كان مطبقاً فى عهد محمد القائد صلى الله عليه وسلم ، بل كان من أسلحته الأساسية التى كسب بها معاركه ، وقد أثر عنه قوله :

« نصرت بالرعب »

كانت الحرب ـ فى رأى محمد سلاحاً وعقيدة

السلاح فى اليد والعقيدة فى الوجدان .

وإذا كانت المهنة قد وضعت فى يد الجندى سلاحاً فإن العقيدة هى التى تضع فى نفسه كفاحاً ، هى التى تدفعه للإقدام وتعينه على مجابهة الخطر .

كان الجندى المسلم يقدم على الجهاد وهو يعرف غرضه جيداً ويصمم على بلوغه تماماً مهما يحدث ، وهو على أى حال مقتنع تماماً بضرورة الظفر بالعدو أو الموت . . سينتصر أو يستشهد .

ومتى صار الموقف واضحاً هكذا أمام الجندى : النصر أو الاستشهاد، فإنه يندفع للقاء عدوه مستبسلاً فى القتال مرحباً بما يجرى له غير عابئ بأية مشقة أو تضحية . . وهذا معناه قوة غلابة تنزل على الخصم كما ينزل

البلاء الشديد ، وقد قدر نابليون القوة المعنوية — بعد مئات السنين — فجعلها تساوى ثلاثة أمثال القوة المادية وكان يقول :

« توجد فى العالم قوتان : السيف والروح .

والسيف دائماً ينهزم أمام الروح » .

إن كثيراً من المعارك ، قديماً وحديثاً ، لم تكن الغلبة فيها لكثرة العدو أو لوفرة السلاح وإنما كان للمعنويات فضل إنقاذ الموقف المتهالك وانتزاع النصر من براثن الهزيمة . وفارق كبير بين جيش معتد يسعى للفتح والقهر وجيش مناضل يقف مدافعاً عن وطنه المهدد بالخطر وقد امتلأت نفوس أبنائه بالعاطفة الوطنية وتضاعفت قوته المعنوية بفضل حبه الوطن والأهل ، وإيمانه بأحقيته فى الحياة الحرة الكريمة .

هكذا كانت عقيدة المؤمنين — حين كانت تتحرك سراياهم للقاء العدو — قوة خفية غلابة فيها إيمان بالله والوطن وفيها سخط ومرارة على الذين أمعنوا ظلماً وتعذيباً وقتلاً فى المؤمنين وفيها إدراك نتيجة الإقدام والتضحية وهى أن تكون كلمة الله هى العليا .

وفى هذا نزلت الآيتان :

« سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . . » .

« يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

وقد ازداد المؤمنون قوة بفضل العقيدة ، فانتصروا فى بدر وكان عددهم ثلثمائة وعدد المشركين ألفاً وحولوا الهزيمة إلى نصر فى أحد بفضل العزيمة والإصرار على القتال فى ظروف سيئة وبتضحيات بالغة ، ثم تتابعت انتصاراتهم وفتوحهم فكان مجرد تحركهم للقتال يثير فى أعدائهم روح الهزيمة ، وبات يخشى بأسهم .

حتى كانت كثيراً من اللقاءات تنفض دون قتال ، ثم امتدت هذه الظاهرة حتى عبرت الحدود وتناهت شجاعة المسلمين وبسالتهم إلى الفرس والروم .

وقد كتب خالد لقائد الفرس قبل اللقاء يخيره بين الإسلام أو الجزية أو الحرب ويقول :

« جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

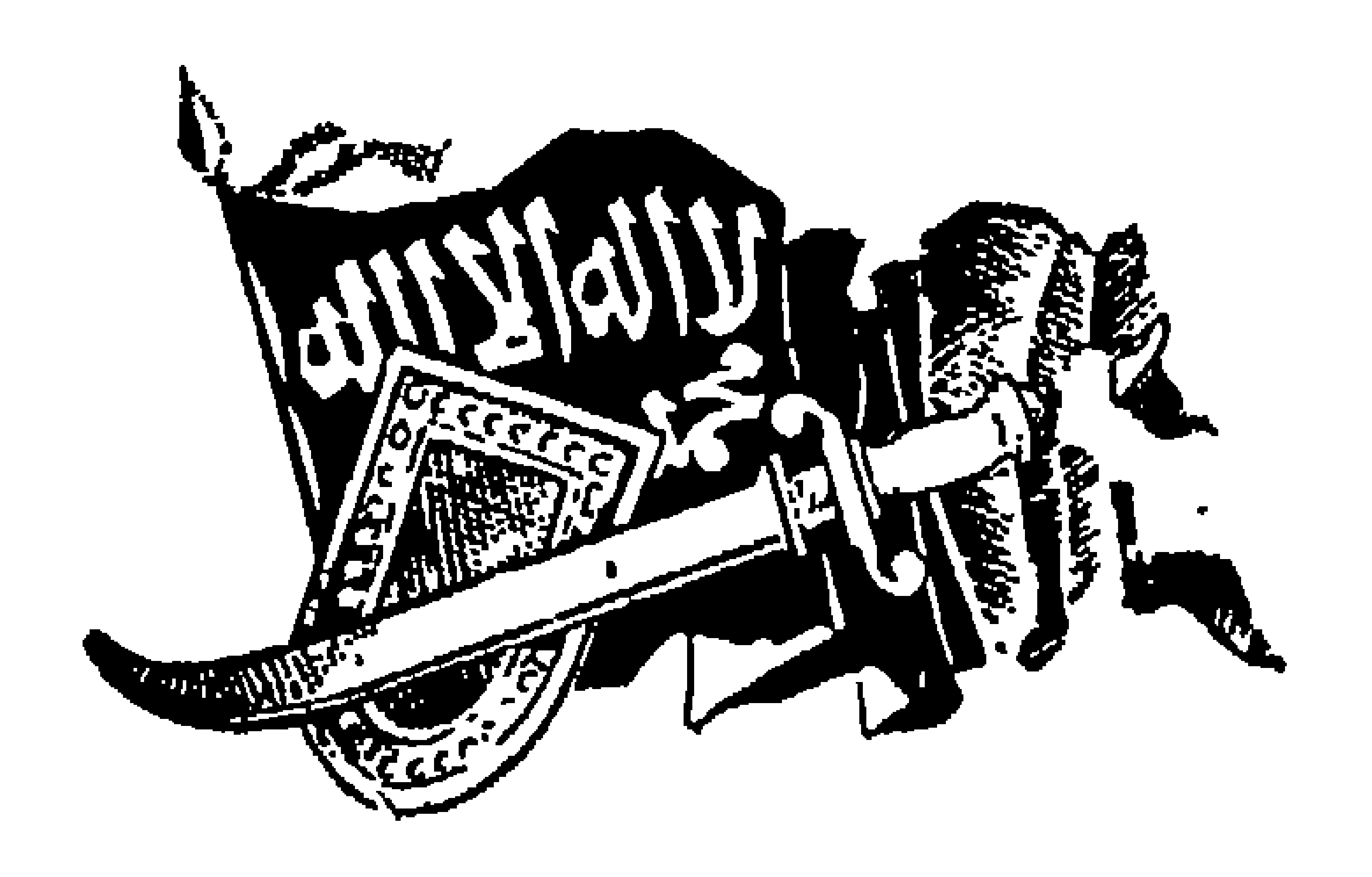
وعندما بعث سعد وفده إلى الملك يزد جرد تكلم المغيرة بن شعبة مخاطباً الملك : الإسلام أو الجزية وإلا فالمناجزة .

أى أمامك أحد ثلاث : أن تتفهم الدعوة وتقتنع بها وتدخل ومن معك دين الله ، أو تدفع الجزية عن ذلة وأنت صاغر وإلا ، فالسيف .

فمن أين جاء المغيرة وأصحابه بهذه القدرة ، وهم يعلمون أنهم دون خصومهم عدداً وسلاحاً وجاهاً .

إنها قوة العقيدة ، أو القوة المعنوية فى قاموس الحرب الحديثة ، أو المبدأ الثامن من مبادئ الحرب التى لا غنى عنها لإحراز النصر .

القيادة عند أبي بكر



« إن مهمة رئيس الدولة — القائد الأعلى للقوات المسلحة — هى اختيار قادة أكفاء وإعطاؤهم التوجيه السياسى والاستراتيجى اللازم ، ثم : ترك الحرب لهم »

هذا الرأى الحصيف نتاج الخبرة والدراسة فى تاريخ القيادة والحرب أدلى به فى سنة ١٩٧٠ الفيلد مارشال الفيكونت مونتجمرى قائد معركة العلمين الشهيرة .

وهذا الرأى — الذى يمثل أزهى وأصح ما وصل إليه الفكر السياسى والعسكرى فى تحديد التبعيات والمسئوليات — كان يعمل به — قبل أربعة عشر قرناً — أمير المؤمنين أبو بكر الصديق !

ولى أبو بكر خلافة المسلمين بعد محمد صلى الله عليه وسلم ،وكان أول الخلفاء الراشدين .

وقد واجهه غداة توليه المسئولية العظمى حادثان كبيران :

أولهما : الردة ، إذ انقلبت بعض الأفراد والقبائل على أعقابها بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وارتدت عن دين الله ، فكان على الخليفة أن يواجه المرتدين ويضرب على يد المارقين ويحمى الدعوة من المنقضين والمضللين .

وثانيهما : لقاء الروم ، إذ كان رسول الله قد أعد جيشاً لوقف الروم عند حدودهم بعد ما تناهى إليه صلوات الله عليه من تآمرهم

وعدوانهم واستهانتهم بالدعوة وتجهزهم للانقضاض على قاعدة الإسلام ، وقد كان آخر ما أشار به قبل أن يدركه الموت :

« أنفذوا بعث أسامة » .

وقد كان أول ما فعله أبو بكر — فور أن تمت بيعته — إنفاذ بعث أسامة .

اتخذ القرار وهو يعلم بأن الظروف مضطربة على أثر وفاة النبي ، وأن خطر الردة شديد، وأن هناك معارضة لتسيير الجيش وانتقاضاً على أن يكون أسامة قائد الجيش .

ولكن أبا بكر حسم الموقف وأصدر القرار .

وأعلن على الناس :

« ليتم بعث أسامة . ألا لا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف » .

وهكذا القيادة العليا :

دراسة الموقف . . تجهيز الجيش .. تعيين القائد .. إصدار القرار .

وقد أعطى أبو بكر القدوة الحسنة للقائد الأعلى فى ظروف عصره وأحداث زمانه ، إذ خرج يودع الجيش وهو ماش على قدميه، وأسامة راكب لكى يزيدهم لإمارة أسامة إذعاناً وتسليماً ، وقد رجاه أسامة أن يركب فلم يقبل ، ورجاه أن يسمح له بالنزول من فوق دابته فقال أبو بكر :

« والله لا تنزل ووالله لا أركب

وما علىّ أن أغبر قدمىّ فى سبيل الله ساعة » .

وخطب أبو بكر فى توديع جيش أسامة :

« أيها الناس

قفوا أوصكم بعشر فاحفظوها عنى :

لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة .

وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه .

وتلقون أقواماً قد محقوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً .

اندفعوا باسم الله ، أقناكم الله بالطعن والطاعون » .

ثم قال لأسامة :

اصنع ما أمرك به نبى الله صلى الله عليه وسلم

ابدأ ببلاد قضاعة ، ثم ائت آبل .

ولا تقصرن فى شىء من أمر رسول الله ،

ولا تعجلن لما خلفت عن عهده

وهكذا رئيس الدولة يختار القائد ويحدد له الهدف ويقدم له من

التوجيهات العامة حصيلة الفكر والتجربة وجماع الرأى فيما ينبغى أن تكون عليه الحرب التى قصد بها إلزام العدو الحدود، وما ينبغى أن يكون عايه المجاهدون من سلوك وأخلاقيات، ثم إنه يحرض المؤمنين على قتال أعدائهم بمنتهى البأس والشدة وأن يخفقوا بالسيف خفقاً هؤلاء الذين يريدون أن يلبسوا الليل للغدر بهم والعدوان على مقدساتهم .

فلما عادوا منتصرين ، وكانت المعارك ضد المرتدين على أشدها، لم يشأ أن يستخدمهم برغم شدة حاجته إليهم وإنما قال لأسامة وجنده:

استريحوا وأريحوا ظهوركم

حتى إذا جم الجيش وأخذ كفايته من الراحة ، أمر بهم فخرجوا إلى « ذى القصة » استعداداً لمعركة حامية ضد المرتدين ، وقسم الجيش إلى ثمانية ألوية — وجهتها الجنوب — وحدد لكل منها هدفاً وعلى رأس كل منها قائداً مغواراً :

خالد بن الوليد
عكرمة بن أبى جهل
شرحبيل بن حسنة
ابن أبى أمية المخزومى
سويد بن مقرن الأوسى
العلاء بن الحضرمى
حذيفة بن محصن الغسانى
عرفجة بن هرثمة

أما بالنسبة للشمال فقد وجه أبو بكر ثلاثة ألوية ، الأول بقيادة عمرو بن العاص لقتال قضاعة ، والثانى بقيادة معن بن حاجز السلمى لقتال بنى سليم وهوازن والثالث بقيادة سعيد بن العاص لتصفية منطقة الحدود .

وجعل الدفاع عن المدينة للأنصار فهم أعلم بأمرها وأحرص من غيرهم على الزود عنها .

وهكذا القائد الذى يعرف قومه جيداً و يزن رجاله تماماً و يضع كل جماعة فى موضعها وكل رجل لما يصلح له .

ولهذا قال عنه عمر بن الخطاب :

« أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر ، كان أعلم بالرجال منى ».

وكان ذلك فى مناسبة الحديث عن خالد بن الوليد، فقد جعله أبو بكر قائداً عاماً لجيوش المسلمين فى القتال الكبير ضد الفرس والروم ، فأبلى بلاءً حسناً فى الجبهتين وأحرز انتصارات حاسمة على الدولتين ، فلما ولى عمر الخلافة كان أول ما فعله عزل خالد وهو على قمة النصر .

كان خالد يضرب بشدة ويقضى على المارقين بالموت الزؤام ، فلم يعترض أبو بكر لأنهم أعداء مكرة لا يؤمن جانبهم ، وكان يقول لخالد :

« جد فى أمر الله ولا تثنين ، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به جهرة ، وإن أصبت من حاد الله أو صاده ممن ترى فى قتله صلاحاً فاقتله » . .

فأمعن خالد فى سياسة الإرهاب والتنكيل ، وحسم الأمر .

كان أبو بكر يختلف عن عمر فى تقدير شخصية خالد .

عمر كان يرى أن فى سيف خالد رهقاً ، وحق عليه أن يقيده .

وأبو بكر كان يقول : «ما كنت لأشيم — أى أغمد — سيفاً سله الله على الكافرين .

وكان يرى أعداء الإسلام والمتربصين بالمؤمنين ليس لهم سوى سيف خالد. كانت المرحلة تقضى بالشدة والظروف لا تسمح باللين أو الهوادة. ولقد ضرب أبو بكر على أيدى المرتدين بشدة وقضى فيهم قضاء مبرماً ، حتى إذا استتبت للدعوة أسباب الأمن والدعم فى شبه الجزيرة وجه أبو بكر ألوية الجهاد إلى الحدود لتأمينها والذود عنها مما كان يتهددها من خطر الفرس والروم ، وجعل خالد بن الوليد قائداً عاماً لجيوش المسلمين ، وكان يقول :

« عقمت النساء أن يلدن مثل خالد »

فالصديق أبو بكر ، كقائد أعلى كان يضع الخطط العامة ويختار القواد للمهام المختلفة و يوجه إليهم النصح فإذا ما بلغوا ميادين معاركهم كان لكل قائد حرية التصرف وكامل المسئولية .

و بهذا الأسلوب فى فهم طبيعة القيادة ومسئولياتها وتقدير احتياجات الحرب ومقتضياتها استطاع الخليفة أبو بكر أن يقضى على الفتنة ويخضع الثائرين والمرتدين ويؤمن شبه الجزيرة ويشيع فيها الوحدة والطمأنينة ، و بعدها أخذ يجهز أمة المسلمين للمضى فى رسالتها و يخطط لجيوشها

فتح الشام والعراق .

إن عهد أبي بكر كان عهد نضال وحروب وقمع فتن وتأمين حدود .

وكانت المرحلة تقتضى الشدة ، فالحرب حرب ولابد لخوضها من أعمال القسوة والبطش استعجالاً للنصر واختصاراً للآلام والتضحيات .

وكان يرى أن أهم ما فى الجيش قائده — وهذه حقيقة ملازمة لجميع مراحل التاريخ الحربى — فالقائد الجيد هو الذى يحصل على ثقة جنوده وهو الذى يحرز النصر ، والجنود — كل الجنود — يحبون القائد العظيم .

إن المسلمين لم ينتصروا بكثرة عددهم ولا بوفور عدتهم وسلاحهم ، وإنما انتصروا بمهارة القيادة وبالروح المعنوية . . فالعلة — كما خطرت لأبى بكر — هى علة القيادة ، وكان الموقف يحتاج إلى القائد الكفء الجسور الذى لا يعرف فى الحرب هوادة ولا يهاب الموت .

وعندما نثر أبو بكر كنانته وعجم أعواد رجاله تكشفت له الخصائص التالية :

أبو عبيدة — على مقدرته — رجل رقيق القلب .

عمرو بن العاص — على دهائه فى السياسة — هياب غير مقدام .

عكرمة : مدوار مقدام ، لكن تعوزه دقة التقدير .

. . غير هؤلاء لم يسبق لهم تولى القيادة فى المعارك الكبرى .

وليس بين القادة من يسلم للآخر بالتفوق على سائرهم تفوقاً يكفل بسلطاته وحدة القيادة . . غير واحد فقط :

خالد بن الوليد

وقالها أبو بكر :
والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد .

* * *

ومن رسائل أبى بكر لقواده تظهر معانى الإيمان والولاء وتقدير القيادة وتقرير الجزاء :

١ ــ من وصية أبى بكر لقائد جيشه خالد عند مسيرته إلى بزاخة لقتال المرتدين :

« فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالإدلاء وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن للعرب غرة . . وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك وبعضهم لا عليك ولا لك ، متربص السوء ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة . . سر على بركة الله » .

٢ ــ من وصية أبى بكر لجيش خالد بن الوليد عند مسيرته من اليمامة إلى العراق :

« لقد أمرت خالد بن الوليد بالسير إلى العراق لا يبرحه حتى يأتيه أمرى ، فسيروا معه ولا تثاقلوا عنه ، فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر لمن حسنت فيه نيته وعظمت فى الخير رغبته ، فإذا قدمتم العراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمرى » .

٣ – من وصية أبي بكر إلى يزيد بن أبي سفيان :

« إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً .

وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به . وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولى كلامهم

واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتتكشف لك الأسرار .

وأصدق اللقاء

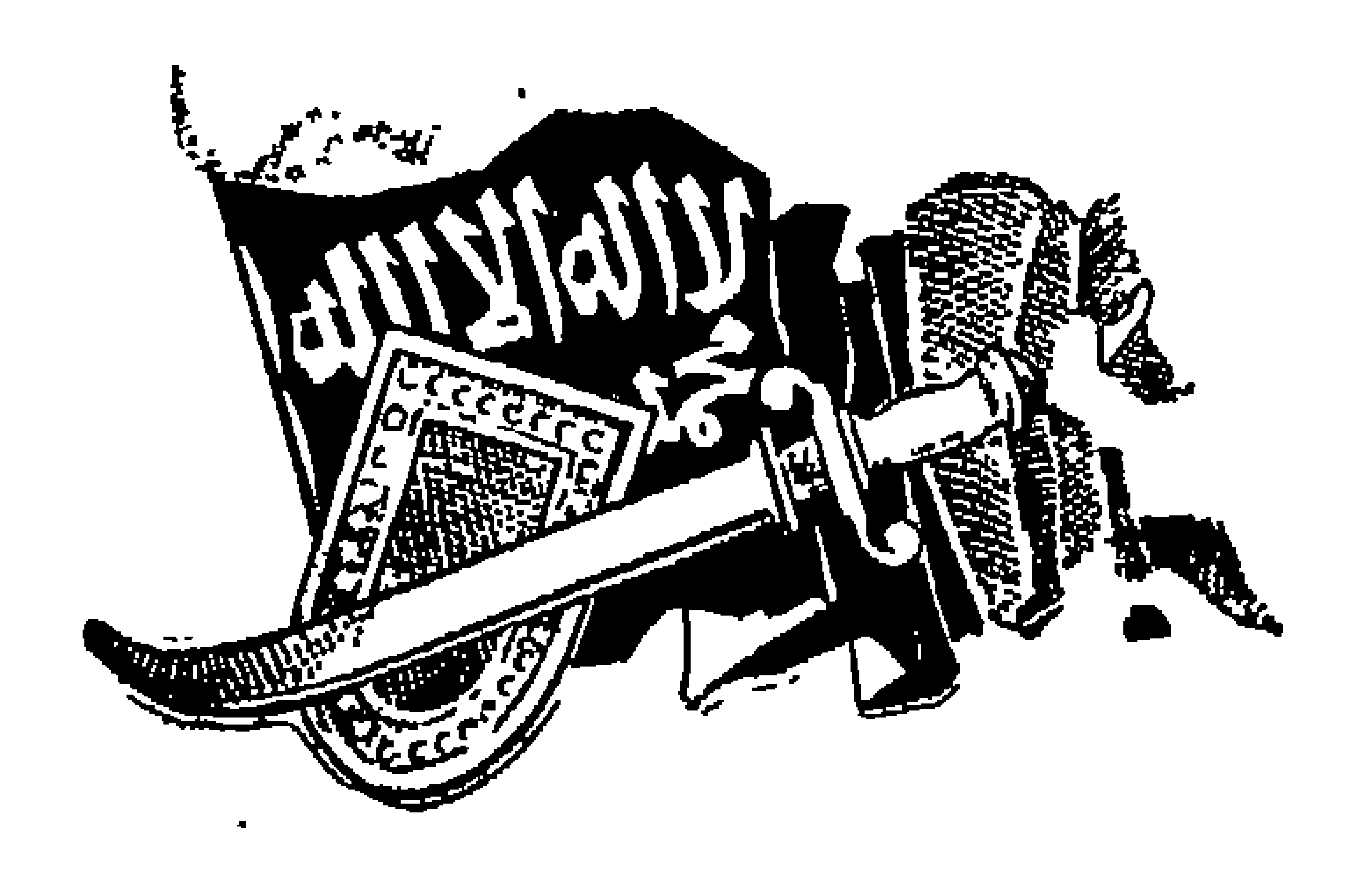
ولا تجبن فيجبن الناس ».

وفى السطر الأخير من الوصية تكمن أعظم حقائق القيادة ، وهى أنه كيفما يكن القائد يكن الجنود .

* * *

أقول إن أبا بكر كان سابق زمنه ، وأزمنة كثيرة بعده فى فهم مبادئ القيادة ومقتضيات القيادة العامة والقيادة الميدانية ، وحدود التبعات والمسئوليات ومواقع المراجعة ومواقع المشاركة ومواقع اتخاذ القرارات . . وأنه كان بإيمانه وعقله وخلقه نموذجاً للقائد الأعلى يصلح لجميع الأزمان .

القيادة عند عُمر



فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فتح العرب العراق والشام ومصر ودالت دولة الفرس والروم أعظم إمبراطوريتين فى ذلك الزمن .

وكانت الظروف التى آلت فيها مقاليد أمور المسلمين للخليفة الفاروق ظروف حرب صعبة المراس متعددة الساحات ، وكانت جيوش المسلمين حين قبض أبو بكر تحاول دون جدوى فتح طريقها إلى المدائن ودمشق ، وقد توقفت فى مواجهة الجيوش الكثيفة التى تصادمها فى بطاح فارس وعلى ثرى الشام .

ولم يكن الموقف جديداً على عمر لأنه كان المساعد الأول للخليفة الصديق أبى بكر ، ولكن تبعات المسئولية المباشرة أثقلت كاهله وهزت وجدانه يوم توليه إمارة المؤمنين . فحمل العبء الجسيم ونهض بالرسالة الجليلة فى إيمان وإصرار وعزم وشدة . وبفضل صفاته الطيبة ، وبخاصة صفة الصلابة نجحت قيادته واستطاعت الجيوش الإسلامية فى عهد خلافته أن ترسم حدود الإمبراطورية الإسلامية الراسخة بكل علامات وسمات الإمبراطورية العظمى فى التاريخ من حضارة وثقافة وعلم وعدالة ورخاء .

فإذا كان عهد أبى بكر قد تميز بالقضاء على الفتنة والردة وصد العدوان عن الحدود ، فإن عهد عمر كان عهد الفتوح والانتصارات العظمى الحاسمة التى أفضت إلى قيام الإمبراطورية الإسلامية .

وكان الخليفة — من وجهة النظر العسكرية — هو القائد الأعلى للجيوش الإسلامية ، وقد جالت وصالت فى شبه الجزيرة حتى دانت جميعاً لراية الإسلام ؛ وتدربت واختبرت وتطورت حتى أصبحت قادرة على مواجهة أعظم جيوش ذلك الزمان ، فصادمت الفرس فى العراق والروم فى الشام ، وبعد معارك عاتية متعددة قضت على خصومها وسادت وفتحت صفحة خالدة فى التاريخ الحربى إلى جانب صفحات مشرقة فى تاريخ الحضارة والقيم الإنسانية .

وإذا لم يكن لعمر فضل إنشاء الجيش الإسلامى ، الذى كان الفضل الأول فيه لقيادة محمد وبعوثه وسراياه ومغازيه ، وإذا لم يكن له فضل قيادة المعارك الأولية فى حروب الردة وتأمين الحدود — وقد كانت المهمة الشاقة والمرحلة الفاصلة فى ظل قيادة أبى بكر — فإن عمراً كان له فضل قيادة المعارك الحاسمة فى ميادين جديدة وآفاق واسعة ، وقد استكمل العمليات الأخيرة ضد الفرس والروم ، ثم أقدم على مخاطرة كبرى وعمل إسلامى وعسكرى كبير هو فتح مصر وضمها إلى جامعة الأمة الإسلامية .

ولم يكن عمر حين ولى الخلافة جديداً على الجيش وأموره والقيادة وخصائصها لأنه كان من القادة المبرزين الذى نشأوا فى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقدعهد إليه بعمليات رئيسية فى كثير من البعوث والسرايا ، كما كان عمر أحد المختارين فى مقدمة الصفوف فى الجيش الذى أعده النبي القائد فى أخريات أيامه والذى اشتهر باسم «بعث أسامة» .

وتظهر قيمة عمر العسكرية من شهادة الخليفة الصديق إذ قال فى مرض وفاته :

« وددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام ، وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق ، فكنت قد بسطت يدى كلتيهما فى سبيل الله » .

وقد اشتهر عمر – كمسلم كبير – بالإيمان عن تفهم واقتناع ، وبالعدالة الكاملة التى لا تشوبها عاطفة ، وبالشدة التى يعامل بها القريب كما يعامل بها الغريب ، وبالجرأة التى لا تعرف أنصاف الحلول ، وبالقوة التى يخشاه بها المقربون ، وبالرجاحة التى كان يكسب بها المواقف الحرجة ويصدر بالرأى السليم .

وهذه الصفات – فى الأغلب والأعم – لازمة للقائد الأعلى ، وزاد عليها أنه كان صاحب صفات أخرى عسكرية تماماً لا غنى عنها، بل جاء ذكرها بين خصائص كبار العسكريين فى جميع الأزمان .

ومن هذه الخصائص :

الحصافة

الصلابة

الإرادة

روح الديمقراطية

الشجاعة الفطرية

الحصافة :

كان عمر يعلم أن القيادة الصحيحة هى أول دعائم النصر ، فكان يهتم باختيار القائد ، فإذا رشح له رجل فإن عمر كان قوى الملاحظة شديد الفراسة يلمح صفات الرجل ويقدر حسناته وسيئاته ، وبميزان العدالة الدقيق — وقد كانت العدالة صفته الغالبة — يصدر حكمه .

عندما رشح له سليط بن قيس — وهو يعرف كثيراً من محامده وأهمها الجرأة والتجربة — قال :

« لم يمنعن أن أؤمر سليطاً إلا سرعته فى الحرب .
وفى التسرع إلى الحرب ضياع إلا عن بيان .
والحرب لا يصلحها إلا المكيث »

وقد عاود هذا الرأى فى وصيته لأبى عبيد عمر بن مسعود ، وفيها ما يكشف عن ملكة القيادة فى عمر وتوافر شروطها فيه :

« لا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ،
والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى
يعرف الفرصة والكف » .

وكان عمر يقدر عمرو بن العاص ويعرف فيه الذكاء ، ولكنه كان يعرف فيه أيضاً حبه للإمارة ، فلما سعى عمرو إليه ليزكيه لإمارة الجيش بدلاً من أبى عبيدة ، واجهه بصراحة قائلاً :

« أبو عبيدة أفضل منزلة عندنا
ويحك يا عمرو ! إنك لتحب الإمارة »

الصلابة :

الصلابة – أى المتانة – من الصفات الأساسية اللازمة للقائد ، وقد أشرنا فى غير هذا المكان إلى رأى المارشال ويفل : إننا إذا بحثنا فى أسباب إخفاق عدد كبير من القادة ، فإننا سنجد فى المقدمة الافتقار إلى صفة الصلابة ، أى القدرة على تحمل صدمات الحرب ومفاجآتها .

وقد اشتهر عن عمر صلابته فى الحق ومتانة أعصابه فى مواجهة الأحداث الخطيرة ، ومن ذلك ما حدث عندما بلغته هزيمة أبى عبيد الثقفى أمام قوة فارسية .

فلم يبتئس عمر بل اشتد عزماً وإصراراً ونهض يريد أن يتقدم بنفسه عدداً من الرجال لولا أن صرفه عن ذلك كثرة من ذوى الرأى فولى سعد ابن أبى وقاص ودفعه للانتقام والثأر حتى فتح الله للمسلمين أبواب فارس جميعاً .

ولم يهتز بن الخطاب حين هزم المسلمون فى وقعة الجسر وارتدوا مدحورين إلى المدينة وثار عليهم أهلها ونهروهم ، فتصدى لهم عمر ، وقال قولته المشهورة :

« يا معشر المسلمين ، لا تجزعوا ، اللهم كل مسلم فى حل منى ،

أنا فئة كل مسلم » وسارع بإرسال المدد إلى المثنى بن حارثة ، وعدل الموقف وكسب معركة البويب التى أزالت عن المسلمين هزيمة معركة الجسر .

وربما تكون صفة الصلابة هذه المنشودة فى القائد المسئول مرادفة لصفة « الغلظة » التى وصفها به عبد الرحمن بن عوف أو «الشدة » التى وصفه بها أبو بكر ، أو « القوة » التى وردت فى قوله : وهو يعلن تولية عمر خليفة له :

لقد وليت عليهم خيرهم وأقواهم وأحرصهم » .

الإرادة :

يعتبر عمر بن الخطاب ، كقائد أعلى للجيوش العربية ، من النوع المكيث ، أى القائد المتأنى الذى لا يتسرع فى الحرب .

هذه الصفة تقتضيها مسئولية القائد العام فى كل زمن وفى أية معركة لأن أية غلطة تودى بحياة العشرات والمئات كما تؤثر فى مصير الحرب وربما فى مصير الشعب لسنوات عديدة .

وقد اشتهر عدد من القادة فى التاريخ بالتأنى ، أى الدراسة المستفيضة والتحضير الطويل للضربة ، ومن هؤلاء الجنرال اللنبي فى معاركه ضد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى ، وربما تكون هذه الصفة من الصفات الأساسية للقواد الإنجليز .

وليس المكث أو التأنى فى الحرب خطيئة ولا هو ضد الشجاعة والروح الهجومية ولكنه يعتبر تجميعاً للإرادة ، فإذا ما تمت دراسة

الموقف ووضحت الخطة فإن القائد المحنك يضع قراره ، أى لا يكون القرار ارتجاليًّا ولا متعجلاً والمهم أن يعرف القائد كيف يتخذ قراراً ومتى وكيف ينفذ القرار .

والإرادة هى التصميم على الضربة التى أعدت للعدو أو تنفيذ الخطة التى تقررت ، ولا تردد بعد إصدار القرار ، على حد قول الشاعر :

إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأى أن تتَرددا

عندما ولى عمر الخلافة ، والقيادة ، وجد أن الجيوش الإسلامية تعانى مركزاً صعباً فى ميدانى قتالها ضد الفرس وضد الروم فوضع خططه وشدد إرادته على استكمال الفتوح ، وبذل الجهد البليغ فى تلبية احتياجات الميدانين من الرجال والعتاد وارتبطت إرادته بالنصر .

فالصبر العظيم والثبات على الجهد وقوة الإرادة كانت من الصفات البارزة فى عمر بن الخطاب وكانت طبيعة القائد راسخة فى كيانه واضحة المعالم فى شخصيته فتجمعت له صفات القيادة المثلى من شجاعة وحزم ونظام وتقدير للمسئولية والتزام بالرسالة .

ونجد فى خلال قيادة عمر مواقف صعبة تكتنفها المخاطر ، ولكنه يصدر قراره فيها ببساطة وثقة وتصميم ما دامت إرادته قد أملت القرار ، ومن ذلك قراره بعزل خالد بن الوليد أعظم قادة الإسلام قاطبة وهو على أبواب المعركة الأخيرة فى الشام .

كان عمر قد قدر وقرر دون أن تغيب عن فطنته دقة الموقف العسكرى وشهرة خالد وتعلق الجنود به وارتباط النصر بكفاءته وألمعيته . .

وصدر القرار فى الساعة الحرجة وتغلبت إرادة عمر على كل ما عداها من تحذيرات أو مثبطات .

ولسنا فى صدد مناقشة القرار ، التى ما زال حتى اليوم يصادف الاندهاش ويتطلب المراجعة ويواجه النقد ، ولكن الأمر الذى لا مراء فيه هو أن عمر بن الخطاب قد اتخذ القرار وبرزت فيه إرادة القائد الأعلى المسئول عن جميع القواد والجيوش والمعارك والمصير .

ويمكن القول إن عمله هذا لم يكن يجرؤ عليه إلا القليل من أقوى الحكام فى تاريخ الحرب كله .

وقد اتخذ عمر قراره هذا وحده دون مشاورة غيره .

ولكن لم تكن هذه طبيعته فى اتخاذ القرارات وإنما كانت المشاورة أسلوبه المفضل وفنه المعروف .

هكذا المسئول الكبير يقدر مواقع المراجعة والمشاورة ، ويقدر أيضاً مواقع إصدار القرارات ، متحملاً المسئولية الجليلة فى الحالين .

وقد كان معروفاً عن عمر جيشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة إلى الطوارئ وقوة الفراسة والولوج إلى الغيب والأسرار .

كما أنه كان رجلاً مهيباً قوى الشكيمة حتى قال عنه رسول الله : إن الشيطان ليخاف منك يا عمر .

وبهذه الصفات القوية ، ومنها الهيبة والإرادة وجيشان الشعور وقوة الشكيمة تكاملت شخصية الفاروق ، وبها ساس الشعوب المختلفة وأدار الحروب المتعددة وأقام القادة الأفذاذ وأشرف على الميادين البعيدة

ونجح فى كل ما هم به وعزم عليه وسدد إرادته لتحصيله من انتصارات وفتوح .

روح الديمقراطية :

قدمنا من صفات عمر صفتين ربما تبدوان مختلفتين أو متعارضتين : المكث أى التأنى ، والإرادة أى التصميم على بلوغ الغرض . وقلنا فى موضع إنه كان يشاور الناس وفى موضع آخر إنه كان يتخذ القرار وحده ، كما فعل فى عزل خالد بن الوليد .

وربما يكون هناك اختلاف بين بعض هذه الصفات وبعضها الآخر أو تكون الظروف قد حكمت بكل منها فى حينه ، وعلى أى حال فإن من الصفات المطلوبة فى القائد ما يعتبر متناقضاً أو مختلفاً مع بعضه لبعض ، وفى هذا قال سقراط قبل آلاف السنين :

يجب أن يكون القائد دقيقاً حمولاً لماحاً . . طيباً وقاسياً . . بسيطاً ومبهماً . . مخادعاً ويقظاً . . كريماً وبخيلاً . . متعجلاً ومتمهلاً .

وقد وافق سقراط على هذا الرأى كثيرون من المفكرين والمعقبين العسكريين وفى مقدمتهم المارشال ويفل ، فهو يعتبر ما تطلبه سقراط فى القائد العظيم أحسن ما قيل .

أما بالنسبة لعمر بن الخطاب ، فقد كان يملك صفات متعددة يطبق كلاً منها فى موضعه الملائم . وكان معروفاً عنه أنه عظيم الشدة فى مصارعة العدو ولكنه عظيم الرقة حيال الضعيف والمظلوم ، وكان

معروفاً بشدة البطش وجيشان الشعور وقوة الإرادة حتى يفطن أنه وحده كفيل بتحريك كافة الأمور وقدير على مواجهة المواقف الصعبة وإصدار قراره فيها، ولكن عمر كان فى حقيقته كثير التشاور مطبوعاً على أخذ الرأى وطلب النصيحة .

كان عمر لا يكتفى بمشاورة الخاصة بل كان يضع الموقف أمام العامة ، ويخطب الناس فى المسجد ويعرض عليهم ما عنده ويناقشهم ويشاورهم ويطلب من قادته المشاورة واستطلاع الرأى كما فعل مع أبى عبيد الله الثقفى عندما أمره على الجيش المرسل إلى العراق ، فقد نصحه بأن يسمع من أصحاب رسول الله وأن يشركهم فى الأمر وأن يشاور سليط بن قيس لجرأته وتجربته .

ولا ريب أن هذه الروح الديمقراطية تعتبر فى مقدمة عوامل التفوق والوعى فى الجيوش . وفرق كبير بين جيش يتشاور فى الأمر ، وجيش آخر يتلقى التعليمات ويتحرك ملتزماً التطبيق الحرفى لأوامر القيادة .

إن عرض الموقف على القواد وعلى أكبر عدد ممكن من الجنود هو الوسيلة الفعالة للحصول على جندى مقتنع وفاهم وراغب فى تحقيق الأهداف .

وفى الدراسات العسكرية يبرز السؤال :

ما الذى يدفع الجندى ليخاطر بحياته ، بكل شجاعة ؟

وسؤال آخر تابع ولاحق :

ما هو نصيب القائد فى تنمية البسالة فى الجندى ؟

وقد جاء الرد بأن الذى يدفع الجندى إلى المخاطرة هو فهمه للغرض وتصميمه على بلوغه ، وإن القائد الذى يحوز ثقة جنوده ينمى فيهم البسالة . . فالقائد الذى يفهم جنوده ويتفاهم معهم ويحصل على ثقتهم هو القائد الملهم الذى يدرك أن أول متطلبات النصر هى : ثقة الجنود بأهداف الحرب .

ولا يكون ذلك إلا نتيجة تفاهم ومشاورة واقتناع .

* * *

وهذه سطور من رسائل عمر إلى قواده تنبئ بعلمه وفطانته وقدراته فى القيادة ونظراته فى الحرب .

من عمر بن الخطاب

إلى عبيد الله بن مسعود قائد المدد بالجيش المسلمين فى العراق :

« إسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأشركهم فى الأمر .

ولا تجتهد مسرعًا بل امتد ، فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة . .

ولا يمنعنى أن أؤمر سليط بن قيس إلا سرعته فى الحرب .

والسرعة إلى الحرب — إلا عن بيان — ضياع .

إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية .

إنك تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه

فانظر كيف تكون

واحرز لسانك ولا تفشين سرك ، فإن صاحب السر ـ ما يضبطه ـ متحصن لا يؤتى من وجه يكره ، وإذا لم يضبطه كان بمضيعة »

ومن هذه الرسالة تتضح جوانب من أهم أمور الحرب :

المشاورة .

الاتئاد ، أى الأناة فى الاجتهاد

السرية ، أى الكتمان .

* * *

من عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص بعد اختياره لحرب فارس :

إذا انتهيت إلى القادسية ، وهو منزل رغيب خصيب، دونه قناطر وأنهار ممتنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر ، والجراع بينها ،

ثم الزم مكانك فلا تبرحه ،

فإنك إذا أحسوك أنغضتهم ورموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم .

فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتبستم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنتصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم .

وإن تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم :

ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم .
وكانوا عنها أجبن وبها أجهل .
حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويردكم الكرة : . »

وهنا تظهر من أفكار هذا القائد العظيم دروس جديرة بالتقدير والاعتبار :

١ – اختيار الموقع الملائم للمعركة .
٢ – الإشارة إلى أهمية مصادر المياه فى الحرب .
٣ – التريث قبل الاشتباك حتى تتضح خطة العدو .
٤ – أهمية الصبر والصدق فى القتال .
٥ – أن يكون طريق الارتداد ميسوراً احتمالا للتقهقر .

* * *

وكان عمر ينظر فى الموقف العام ولا يتدخل فى التفاصيل ، بل يترك الحرب للقائد الفعلى فى الميدان ، وفى هذا كتب لأبى عبيد الله بن مسعود :

« أنت الشاهد وأنا الغائب
والشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، وأنت بحضرة عدوك
وعيونك يأتونك بالأخبار .
فإن رأيت الدخول إلى الدروب صوابًا فابعث إليهم السرايا :
وادخل عليهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم :
وإن طلبوا إليك الصلح فصالحهم » .

وهنا أيضًا نظفر بدروس عظيمة :.

١ ــ إن القائد الأعلى لا يتدخل فى أعمال القائد الفعلى الذى يدير المعركة .

٢ ــ أهمية الدوريات .

٣ ــ تحقيق مبدأ السلامة أو الوقاية .

٤ ــ أهمية المبادأة والمبادرة بالهجوم .

٥ ــ إيثار السلم على الحرب إذا جنح العدو إلى السلم .

* * *

وبعد ، فقد رأينا فى هذه العجالة شخصية قيادية على أعلى مستوى ، ونموذجًا عاليًا للقائد العظيم ، شكلا وموضوعًا .

فعمر بن الخطاب كان يجمع بين مظاهر وبواطن القوة والعزيمة والعدالة والحكمة .

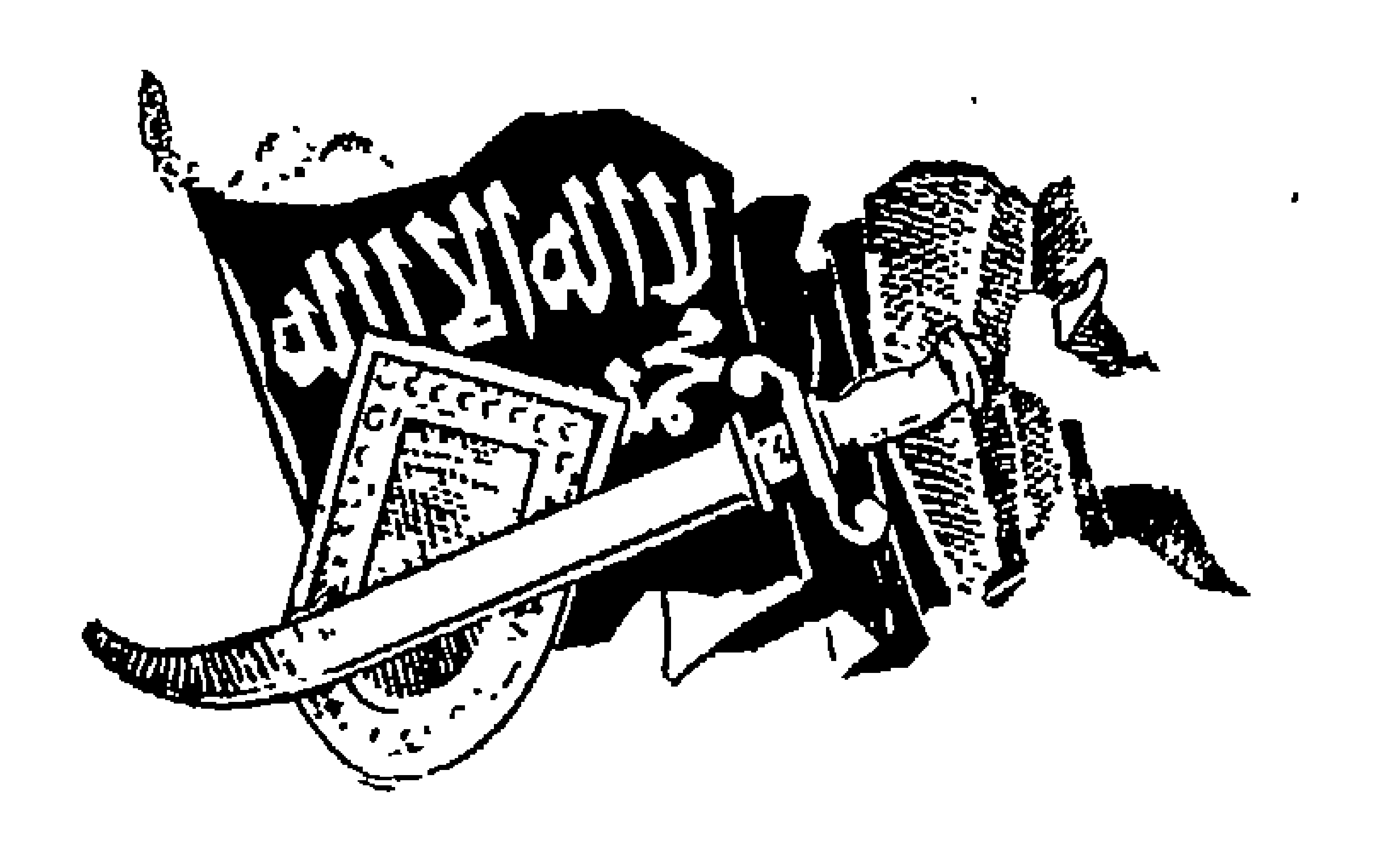
وكان يمتاز بالإدارة ودقة المحاسبة وحسن التنظيم .

كما كان خبيراً بالرجال عارفًا بمتطلبات الحرب وعوامل النصر .

وقد شهد له محمد صلى الله عليه وسلم :

« لم أر عبقريًّا يفرى فريَّه »

قيادة خالد



كان الصديق أبو بكر خليفة رسول الله يقول إن العلة فى القيادة ، فقد كان يرى الجيوش هى هى ، والعدوّ — تقريبًا — هو هو ، ولكن لا بد للنصر من القائد المنتصر .

وهو حين نثر كنانته وعجم أعواد رجاله وجد أن أقدرهم فى قيادة الرجال وأكفأهم لإحراز النصر هو : خالد بن الوليد :

وخالد — بشهادة رسول الله — أعظم العظماء ومربى الرجال والقادة — كان سيفاً من سيوف الله ، واشتهر باسم سيف الله المسلول :

وكان أبو بكر يثنى عليه ويثق به ويقدره قدره حتى قال :

عقمت النساء أن يلدن مثل خالد .

وقد حارب خالد ضد المسلمين — قبل إسلامه — فى وقعة أحد وحارب بعد إسلامه مشتركًا فى عدد من السرايا والمغازى فى عهد رسول الله ، ثم قاتل المرتدين فى عهد أبى بكر وقاد عمليات تطهير الحدود ، وتولى القيادة العامة فى الحروب الكبرى ضد الروم ، وحقق أمنية أبى بكر :

« لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »

كذلك قاد العمليات الشاقة ضد الفرس فى خمس عشرة موقعة لم يهزم ولم يخطئ ولم يخفق قط فى واحدة منها ، وقد كان مستعداً دائمًا لقتال العدو حيث لقيه مفاجئًا أو غير مفاجئ ، وكان كما وصفه عمرو ابن العاص :

« فى أناة القطاة ووثبة الأسد »

فكيف كان خالد يمارس القيادة ويفهم الحرب ؟

ننظر إليه فى أول وقعة تاريخية اشترك فيها ضد المسلمين . وهى وقعة « أحد » وقد كان خالد — قائد فرسان قريش — فى الجانب الخاسر من المعركة لأن المسلمين أحرزوا نصراً واضحاً منذ بدء القتال ، ولكنهم خالفوا تعاليم القيادة وأفقدهم النصر وعيهم وطغى على روح الطاعة والانقياد فأسرعوا وراء المغانم وتركوا الموقع الحاكم وأهملوا تعزيز النجاح . .

وهنا أدرك خالد بن الوليد فرصته — كقائد لماح لا يرتضى الهزيمة ويتحين الفرصة — فوثب برجاله إلى الموقع الحاكم وأحدث ثغرة فى صفوف المسلمين فقلب ميزان المعركة وأشرف على إحراز النصر لولا ثبات محمد وصحبه الأقربين ولولا أن أفاق المسلمون من المفاجأة فحاربوا وثبتوا وصبروا إلى أن استعادوا الزمام وأحرزوا النصر الأخير .

وتسجل هذه المعركة لخالد أنه كان قائداً ذكياً نشطاً لا يعرف اليأس بل يعرف أن الحرب خدعة وأن المفاجأة لازمة وأن الفرصة قد تسنح فى أية لحظة ، وأن على القائد الأريب أن يتوقعها وأن يحسن استخدامها :[1]

ثم كان أول قتال يشترك فيه خالد بعد إسلامه سرية مؤته التى جردها رسول الله إلى البلقاء لتأديب المعتدين الغسانيين ، وقد جرت المعركة فى غير صالح المسلمين واستشهد فيها القائد زيد بن حارثة ثم خليفته فى القيادة جعفر بن أبى طالب ، وبعده استشهد عبد الله بن رواحة . .

وتلفتت الأنظار ودارت الأفكار فى ساعة الهول حتى اجتمعت الكلمة على تنصب

خالد بن الوليد . . فنظر فى الموقف نظرة سريعة نافذة فإذا هى معركة غير متكافئة إذ منى المسلمون بالهزيمة وكثر عليهم أعداؤهم ، فلم تملكه فطرة المجازفة وإنما استجاب لفطرة القيادة البصيرة . . وفعل ما يفعله القلائل من عظماء القادة فى المواقف المماثلة : اصطنع الاستعداد للهجوم تمويها على الأعداء ، فلما كان الغد قام بعملية انسحاب باهرة وارتد بجيشه سالمًا الهزيمة والضياع .

كما أنه أمن جيشه عند انسحابه بتوليه « قتال المؤخرة » حتى يضمن له السلامة ، وعرف أنه أبلى فى ذلك القتال حتى اندقت فى يده تسعة سيوف .

كذلك حدث لخالد فى معركة حنين عندما انهزم جيش المسلمين ، « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » .

وكان النبى مشتركًا فى المعركة ولولا ثباته وثبات رجاله المقربين لانتهت المعركة بالخسران المبين ، ولكن خالداً قام بدور بطولى وأبدى من فنون الحرب وحيلها ما عدل الموقف برغم إصابته بجراح شديدة ، وقد تغير الموقف بفضل الثبات والشجاعة والحيلة ، ولقى خالد تقدير النبى عليه السلام ، فبارك له وواساه .

وإذا كان القائد الكبير يشتهر أمره بالانتصار فإنه يلقى أعظم التقدير فى المواقف الصعبة وكيف يتصرف إذا دارت عليه المعركة . . ومن المواقف المماثلة التى تحسب للقادة العظام فى التاريخ ما قام به الفيلد مارشال

روميل عقب هزيمته فى معركة العلمين ، إذ تولى سحب جيشه بأمان ــ برغم الظروف الخطيرة التى كانت محدقة به من البر والبحر والجو ــ واستطاع أن ينجو به من كارثة الاستسلام وأن يمضى به على الشاطئ الأفريقى منسحباً من جحيم المعركة وشبح الأسر أو الفناء .

واشترك خالد فى حروب الردة ، من بدايتها إلى نهايتها ، وكان اسمه وحده بشيراً بالفوز فى كل وقعة حتى قال أبو بكر :

« أيها الناس ، سيروا على اسم الله وبركته .. فأميركم خالد بن الوليد » .

وهكذا يحدث اسم القائد فعل السحر فى نفوس الجنود ، وأيضاً فى نفوس الأعداء .

وقد اختار خالد خطة الهجوم برغم ثبات العدو فى مواقع محكمة . كان الموقف يتطلب السرعة ، والسرعة لا بد لها من جسارة ، وكان خالد ــ كما قال ــ لا يعتصم بغير الله .. : أى أن هناك قوة معنوية غلابة تفوق ماديات العدو وإمكانياته ، وقد انتصر خالد بفضل ثقة الجيش به وبما أودعه فى الجيش من قوة معنوية ، هى التى توضع اليوم بين مبادئ الحرب الثابتة .. وقد كان خالد يعمل بمبادئ الحرب جميعاً قبل أن يسجلها نابليون ، بمئات السنين .

كان خالد يسير دائماً بجيشه كامل التعبئة مستعداً للقاء العدو على أى أرض يظهر فيها وفى أى وقت يبدأ فيه القتال ، أى أنه كان مقتنعاً وممارساً وحفيظاً على مبدأ « الحشد » أول مبادئ الحرب ومعناه أن يكون القائد مجهزاً ساعة الصدام بأكمل ما يحتاج إليه الموقف من رجال وعتاد

ونظام ويقظة تكفل إحراز النصر .

وكان يبعث العيون والطلائع فى مقدمة الجيش محققاً مبدأ « الوقاية » أو السلامة ، وكان أبو بكر يوصيه بذلك كما حدث عند تقدمه إلى « بزاخة » لقتال المرتدين . .

فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة
فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد
وسر بالأدلاء وقدم أمامك الطلائع
وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة واحرص
على الموت توهب لك الحياة . . . »

كذلك كان خالد جريئاً مقداما يفضل الهجوم ، ويأخذ بمبدأ أن العمليات التعرضية هى أجدى وسائل الدفاع .

وامتازت أغلب معاركه بالذهاء الذى يحقق له إيهام العدو ثم مفاجأته بما لا يقدر من ناحيتى الزمان والمكان وقوة الضربة :

من أروع وأشق عمليات خالد اختراقه بادية العراق ، فقد اختار أطول الطرق وأشدها قسوة على الجيش الزاحف وأبعدها عن تصور العدو ، وذلك لكى يضمن عنصر المفاجأة ولكى لا يتعرض له أهل العمران على الطرق الأخرى الميسورة .

وبادية العراق كانت مفازة مجهولة غير مطروقة لا يصاب فيها ماء وكان جيش المسلمين يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد ، وقد ضرب خالد رقماً قياسياً ، فاجتازها فى ثمانية عشر يوماً وحقق نصراً لامعاً

فى معركة أجنادين ، وكانت أجنادين هى الفاتحة لمعركة اليرموك أشهر معارك المسلمين وهى التى فصلت فى الموقف بين العرب والروم ، وتم فتح الشام .

وقد انتصر خالد فى معارك كثيرة ، ولكن معركته الكبرى كانت مع نفسه .. ذلك أن المعارك الحربية قد أثبت فيها خالد عظمته كقائد له جميع مميزات وخصائص كبار القادة فى التاريخ ، ولكن معركته مع نفسه يوم عزله تضعه فى منزلة عزيزة وتجعله خير قدوة للقادة فى كل زمان ومكان .

ففى أعظم معاركه وفى أوج انتصاراته ، صدر أمر الخليفة — القائد الأعلى للجيوش الإسلامية — بعزل خالد بن الوليد ، فلما أبلغه أبو عبيدة بالأمر صدع به فى الحال — وكانت المعركة محتدمة وقد ظهرت بوادر النصر — ونزل خالد عن القيادة وحارب تحت إمرة أبى عبيدة حتى تحقق النصر النهائى .

إنها حادثة القيادة والولاء فى التاريخ وأبلغها درساً وأطيبها ذكراً ، وهى تقول للعسكريين جميعاً فى كل عصر وزمان :

« إن أول واجب على الجندى هو إطاعة الأمر فى الحال ، وبغير تردد »

إن خالداً — سيف الله والقائد المغوار والبطل المنتصر — صدر قرار عزله وهو يزجى الصفوف ويقضى فى عدوه ، فلم يبد عليه أى تأثر أو انحراف ، وإنما أطاع الأمر فى الحال ونزل عن القيادة بكل ارتياح ، واستمر تحت إمرة القائد الجديد يوجهه إلى دوره ووفق احتياجات المعركة .

وقال أبو عبيدة :

« إن القيادة مسئولية وليست غنماً ولا جاهاً ولا شهرة »

وقال عمر :

« أمر خالد نفسه ، يرحم الله أبا بكر . . كان أعلم بالرجال منى »

وقال لخالد :

« ما عزلتك لريبة فيك ، ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس »

* * *

ربما كانت الخاتمة لهذا الجندى الكبير على غير ما أراد ، وعندما حانت منيته بكى وأبكانا معه بقوله :

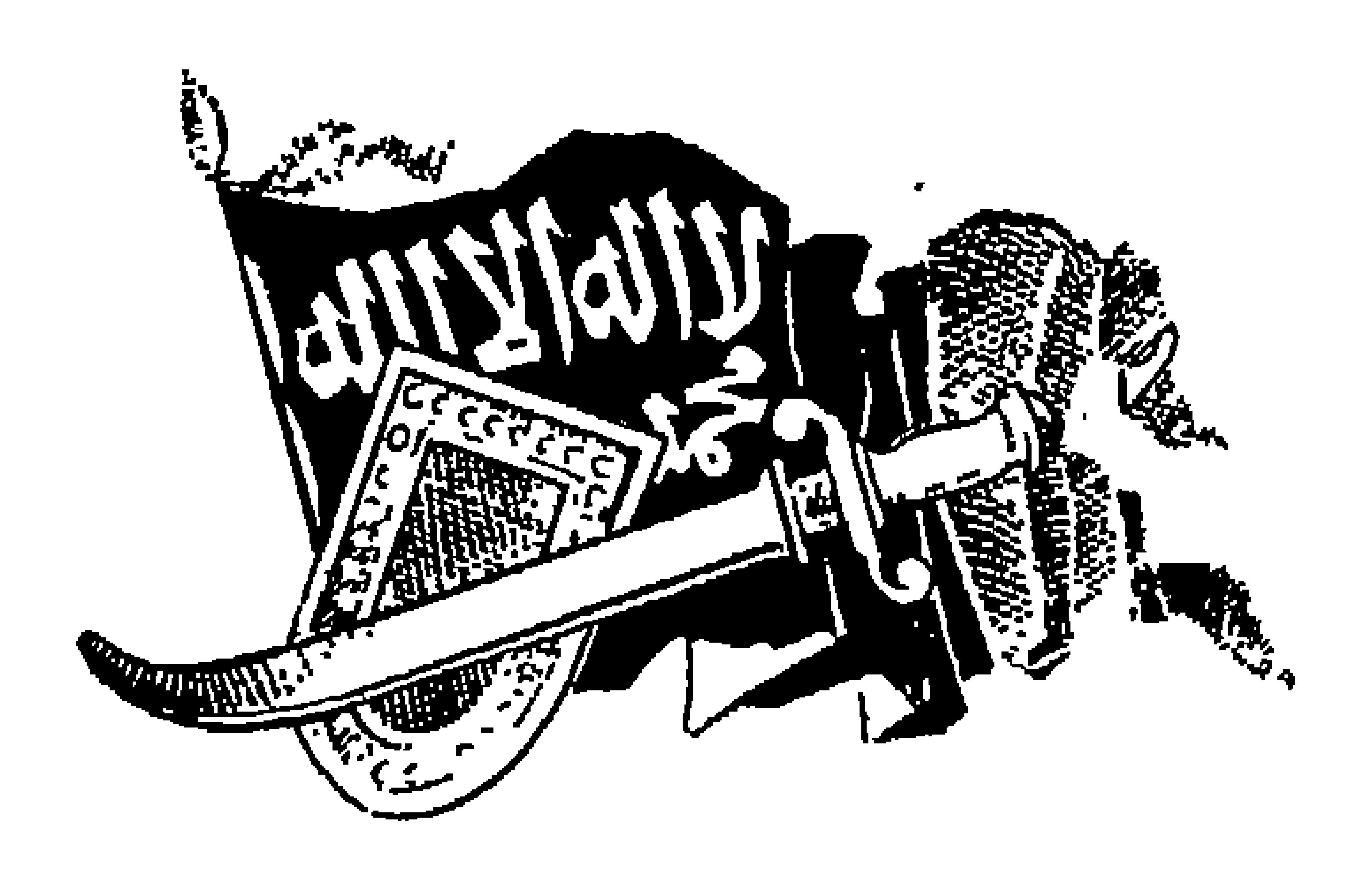
« لقد شهدت مائة زحف أو تزيد ، وما فى بدنى
موقع شبر ليس فيه ضربة سيف أو طعنة رمح . .
وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العير ،
فلا نامت أعين الجبناء . . »

* * *

هذا هو خالد بن الوليد — سيف الله المسلول — قامع الفتنة والردة وقاهر دولة الأكاسرة وهازم الروم وصاحب الدور التاريخى البليغ فى الحروب الإسلامية .

وهو قائد لم تنقصه قط صفة من صفات القائد الكبير وهى : الشجاعة وحضور البديهة وقوة التأثير . . ولهذا ينبغى أن يوضع خالد فى قائمة عباقرة الحرب مع الإسكندر وهانيبال وقيصر ونابليون .

قيادة عمرو



اشتهر عمرو بن العاص قبل إسلامه بأنه كان من خير فتيان قريش وأثبتهم جناناً وأشدهم دهاء ، وقد اشترك فى عدة معارك ضد المسلمين فكان الخصم العنيد والعدو الماكر ، الذى جمع بين حنكة السياسة وشجاعة الجندية ، وحفل تاريخه الحربى والسياسى معاً بالمبتكرات والمناجآت والتصرفات الذكية فى ساعات الحرج . وكانت له فى الحرب كفاية غير مسبوقة وخطط وأساليب تضعه فى صف كبار القادة ، ليس فى زمانه وحسب ، وإنما فى جميع الأزمان .

فهو لم يأخذ الحرب على أنها قتال وحسب ، ولكن الحرب عند عمرو — كجندى موهوب وسياسى محنك — كانت جهاداً يمكن خوضه بأساليب متعددة وأدوات شتى تتناول جميع الأشخاص والأشياء ، حتى إنه يمكن وصفه بالمكيافيلية التى تعتبر أن الغاية تبرر الواسطة ، ولكن دون أن تنحرف الغاية عن القصد الشريف فى آخر الأمر ، وقد أدخل عمرو كثيراً من ضروب الحيل والخداع والتمويه والمكائد فى مواقفه وحروبه .

وعمرو بن العاص هو أول من فكر فى إشراك المرأة فى الحرب .

كان يستنفر قريشاً لقتال المؤمنين ، ورأى أن اشتراك المرأة فى القتال يدفع الرجال إلى المزيد من الاستبسال دفاعاً عن العرض والحمى ، وخشية أن تقع النساء أسيرات حرب .

وقصة خروج النساء مع قريش فى لقائها مع المؤمنين مشهورة فقد

كن يصرخن ويشجعن الرجال على القتال ويقفن فى وجوه المستضعفين، وكن يضربن على الدفوف – كما تؤدى الموسيقات العسكرية مارشات الحماس – وكن ينشدن الأناشيد المثيرة التى تحرك همم الرجال ومنها :

نحن بنات طارق نمشى على النمارق
إن تقبلوا نعانق أوتدبروا نفارق
فراق غير وامق

أى أنهن للرجال المنتصرين فقط !

وفى وقعة أحد كان عمروا من أعلام قريش ضد المسلمين ، وقد برز هو وخالد بن الوليد فى المناورة وانتهاز الفرص حتى كادت المعركة تميل إلى جانبهم ، وفى معركة الخندق كانا يناوشان بمهارة ويستخدمان الحيل لعبور الخندق ويتناوبان أعمال الدوريات والتهديدات المزعجة حتى عظم البلاء على المسلمين واشتد الكرب ، ولكن ثبات الرسول وصحبه غير الموقف وجعل النصر لعباده المؤمنين .

وعندما أسلم عمرو كان إسلامه بشير خير له وللمسلمين ، فقد فتحت أمامه أبواب الجهاد وميادين المعارك الكبرى ، كما أنه كان من سيوف المؤمنين التى سلها على المشركين حتى تم النصر الكامل للأمة الإسلامية .

وأصبح عمرو قائداً من كبار قادة الجيوش الإسلامية فلمع نجمه وذاع صيته وواتته الفرصة الكبرى لإظهار مواهبه الكامنة .

. . فلما كانت غزوة ذات السلاسل ولاه النبى على ثلثمائة من

المهاجرين والأنصار وكلفه أن يستعين بمن فى طريقه من العرب لأنه كان ذا رحم فى تلك الأنحاء فأراد النبي أن يتألفهم به :

وقد سبق عمرو القادة العصريين بمئات السنين عندما فكر فى القيام بالعمليات الليلية إمعانًا فى التستر وتجنبًا للإجهاد وتحضيراً للمفاجأة ، ففى هذه الغزوة عمل على تحويل أذهان العدو عن تحركاته ، فصار يكمن النهار ويسير الليل .

وعندما نزل بأرض جذام ــ وكان شتاء ــ أراد أصحابه أن يصطلوا، فمنعهم عمرو حتى لا ينكشف أمرهم بسبب النار التى يراها الخصوم ليلا على مسافات بعيدة ، وبذلك طبق مبدأ الوقاية .

ولما علم بأن العدو أكثر عدة وعدداً وسار فى تقدير الموقف إلى ترجيح كفة الخصوم لم يندفع فى القتال، ولم يقامر بدخول معركة محفوفة بالأخطار فى ظروف دقيقة تستلزم الحيطة والحذر لأهمية نتائجها. فبعث فى طلب مدد يستعين به على الموقف حتى تكتمل الأهبة ويتم الاستعداد.

وقد قدر له النبي صلى الله عليه وسلم موقفه وبعث إليه أبا عبيدة عامر بن الجراح ومعه مائتان من المهاجرين والأنصار وعقد له لواء وأمره أن يكونا جميعًا ولا يختلفا ، فلما لحق بعمرو وأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ويتقدم عمرو ، قال له عمرو : « إنما قدمت مدداً ، وليس لك أن تؤمنى وأنا الأمير » . . فقال أبو عبيدة : « انظرن ياعمرو . . تعلمن أن آخر ما عهد إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ــ أن قال : « إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا » ، وإنك والله

إن عصيتنى لأطيعنك » .

وهكذا حقق عمرو مبدأ توحيد القيادة ، وحافظ على كيان القائد المسئول الذى أخذ المسئولية على عاتقه واضطلع بأدائها ، وأثبت قبل مئات السنين نظرية نابليون بونابرت : أن قائداً عادياً خير من قائدين عبقريين .

وكان هذا من أهم أسباب نجاح غزوة « ذات السلاسل » ، فقد جعل القيادة كلها فى يده ، وسار – وقد صار فى خمسمائة – حتى دخل بلاد « بلى » ودوخها . . وكان اسمه وحده بشيراً بالفوز ، فقد ذكرت المراجع أن عمراً كلما وصل إلى محلة بلغه أنه كان بها جمع فلما سمعوا به تفرقوا . . وبهذا شتت جموع أهل الشام وأعاد هيبة المسلمين .

وكان عمرو أحد القادة العظماء الذين عهد إليهم القضاء على المرتدين فبدأ بقتال « قضاعة » – فى شمال شبه الجزيرة – وقضى على الردة فيها ، ثم وصلت رسالة من الخليفة الصديق يخبره أن يبقى حيث هو ، أو أن يسير إلى الشام فكان رد عمرو :

« إنى سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها ، فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحى . . » وعندئذ أمره أبو بكر على فلسطين . . ثم كان من قادة المعركة الكبرى ضد الروم ، قائداً للميمنة فى معركة اليرموك الفاصلة التى تم بها فتح الشام .

لقد قال المؤرخون فى عمرو : إن دهاءه السياسى كان يفوق براعته الحربية ، إذ كان حذراً غير مقدام وأنه كان يميل إلى الرياسة ، ويسعى

للإمارة ، فلما قال الخليفة أبو بكر : « إن جمعتكم حرب فأميركم أبو عبيدة بن الجراح» ، لم ييأس عمرو بل ذهب إلى عمر بن الخطاب يناشده أن يكلم أبا بكر ليجعله أميراً على المسلمين بالشام . . فكان جواب عمر : «لا أكذبك! ما كنت لأكلمه فى ذلك أبداً ، وأبو عبيدة أفضل منزلة عندنا منك ، ويحك ياعمرو ؟ . . إنك لتحب الإمارة والله ما تطلب بهذه الرياسة إلا شرف الدنيا . . فاتق الله ياعمرو ، ولا تطلب بشيء من سعيك إلا وجه الله فأخرجه إلى هذا الجيش ، فإن لم تكن أميراً فإنك ستكون فيما بعد » :

وسرعان ما أقبلت الفرصة حين تم فتح فلسطين والشام واستتب الأمر فى عهد الخليفة عمر ، فجاء عمرو بن العاص يستأذنه فى السير إلى مصر ، ووصفها بأنها أكثر الأرض أموالا ، وأنه إذا فتحها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم وتأميناً لسلطان العرب فى الجنوب كما أن بقاءها فى يد الروم يعرض الموقف فى الشام للخطر . وما زال به حتى أذن له وعقد له على أربعة آلاف رجل.

كان لعمرو سابق معرفة بمصر عند قدومه إليها للتجارة فى أيام الجاهلية ، وقد أعجب بخصب أرضها ووفرة خيراتها فطمع فى أن يعقد له اللواء ويكون الأمير ، ولم يزل يهون الأمر على الخليفة ويغريه ، ويعدد له المزايا غير أن الخليفة كان يشغله قبل كل شيء تثبيت أقدام المسلمين فى البلاد التى فتحوها والتى كان جندهم يقيم فيها بين الجزيرة والشام وفارس : ولذلك فإنه ظل متردداً برغم موافقته ، وبعث إلى ابن العاص بجواب مشهور يأمره بالعودة إذا وصله الجواب قبل دخول مصر .

وقد حذر الداهية عمرو ما يمكن أن يكون فى هذه الرسالة التى وصلته فى رفح ، فلم يفتحها حتى دخل أرض مصر ، ثم أعلنها على جنوده .

وكان جيش الروم يبلغ عشرين ألفًا بقيادة القائد تيودور ، ودارت المعركة فى مكان « القاهرة » وكان التفوق العددى فى جانب الروم ، والإيمان وحسن التدبير فى جانب العرب وقد كان العرب ينتصرون بفضل القيادة البارعة .

ثم كانت المعركة الفاصلة حول حصن بابليون الذى استمر يقاوم سبعة أشهر ثم سقط بعمل من أعمال الخداع ، وبعث المقوقس فى مباحثة العرب فخيره عمرو بين الإسلام أو الجزية أو القتال :

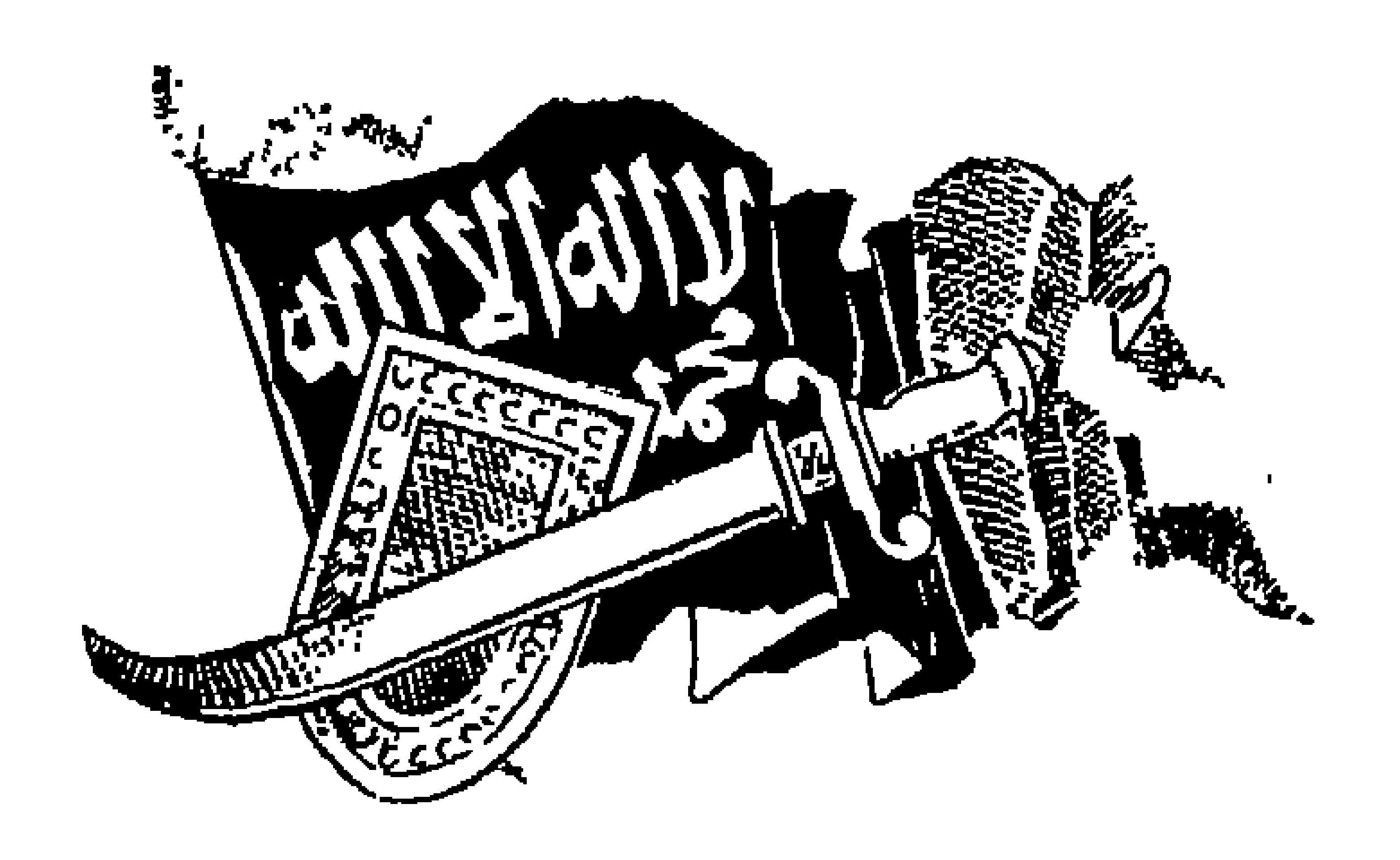
وعاد رسول المقوقس يحمل إلى سيده شروط الصلح ، ويصف العرب وصفًا رائعًا ويقول : « رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، جلوسهم على التراب ، وأميرهم كواحد منهم » .

وقد تأثر الحاكم بهذا الحديث وأدرك كنه العرب وقدر ما كانوا عليه من نظام وآداب فصار وقومه عونًا للمسلمين .

وفى مصر تجلت مواهب عمرو فى الحرب والسياسة والإدارة ، وكان عهده خيراً عظيمًا عليها ، فنظم القضاء ووضع التقسيم الإدارى والضرائب وأشاع الحرية والعدالة .

ودخل عمرو ساحة التاريخ الذى وضعه فى صف عباقرة الحرب والسياسة . . ولا غرو فقد كان عمرو الجندى السياسى الأديب الذى وصف بحق بأنه « داهية العرب » .

قيادة أبي عبيدة



يعتبر أبو عبيدة عامر بن الجراح قائداً عسكريًّا من الطراز الأول فضلا عن صفاته الأخرى التى جعلته بطلا من أبطال العروبة والإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد وصفه بأنه « القوى الأمين » وقال عنه :

« أبو عبيدة أمين هذه الأمة » .

ولا بد أن صفاته الطبيعية قد أهلته للقيادة ، فقد كان من المسلمين الأوائل المؤمنين بصدق وعمق ، وكان ثامن من أسلم — والإيمان قوة للجندى تسمو على قوة السلاح والعتاد — وكان أبو عبيدة فى مقدمة المهاجرين إلى الحبشة فراراً بدينهم ، حتى إذا أذن الله للمؤمنين بالقتال عاد من مهجره وانتظم فى صفوف الجهاد وهو مكتمل العقيدة موفور الإيمان .

ولأبى عبيدة موقف تاريخى يضعه فى مصاف عظماء المسلمين ، عندما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى حدث خلاف فيمن يخلفه ، واشتد الحوار بين المهاجرين والأنصار ، ورأى عمر بن الخطاب أن يحسم الموقف فالتفت إلى أبى عبيدة قائلا : « ابسط يدك لأبايعك فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله » .

فرد أبو عبيدة على الفور :

« ما رأيت لك فهة (أى سقطة) قبلها منذ أسلمت يا عمر . .

أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين . . » .

وقال أبو بكر :

« لقد رضيت لكم أحد الرجلين : عمر بن الخطاب وأبو عبيدة ..

« أما أبو عبيدة فسمعت رسول الله يقول :

« لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

« وأما عمر فسمعت رسول الله يقول :

« اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل » .

وأخيراً حسم الموقف عمر بن الخطاب وأتى فصل الخطاب بقوله :

« يا أبا بكر : امدد يدك أبايعك » وبايعه .

وقال أبو عبيدة :

« يا أبا بكر : إنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، فمن ذا ينبغي أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ؟ » وبايعه ، وتبعه الآخرون ، وتمت البيعة .

واشتهر عن أبي عبيدة قوله :

« ما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمل »

فهو — كقائد — لم ينظر إلى القيادة كغنيمة أو مكسب أو جاه .

وعندما انفلت زمام معركة أحد من أيدي المسلمين ودارت عليهم الدائرة ظهر أبو عبيدة شاهراً سيفه ومتجهاً إلى حيث كان رسول الله قاصداً إلى حمايته والتضحية في سبيله وقد دافع دفاعاً مستميتاً وقاتل ببسالة نادرة حتى دفع الخطر — هو ومن معه من رجال قليلين —

عن مركز القيادة حتى عدل الموقف وكسب المسلمون المعركة الخاسرة.

وقد اشترك أبو عبيدة فى حروب الردة فأبلى بلاء حسناً ثم ولاه عمر بن الخطاب قيادة الجيش الرابع ،أحد الجيوش الأربعة الموجهة لفتح الشام ، وكانت غايته « حمص » .

وقال أبو بكر لقواده :

إذا اجتمعتم فقائدكم أبو عبيدة .

وهى الشهادة التى رفعته إلى مركز القائد العام لجميع الجيوش الإسلامية .

وله ، كقائد ، موقفان ينمان عن إيمانه وأمانته ويكشفان عن متانة تكوينه وعظمة نفسه وعلو همته .

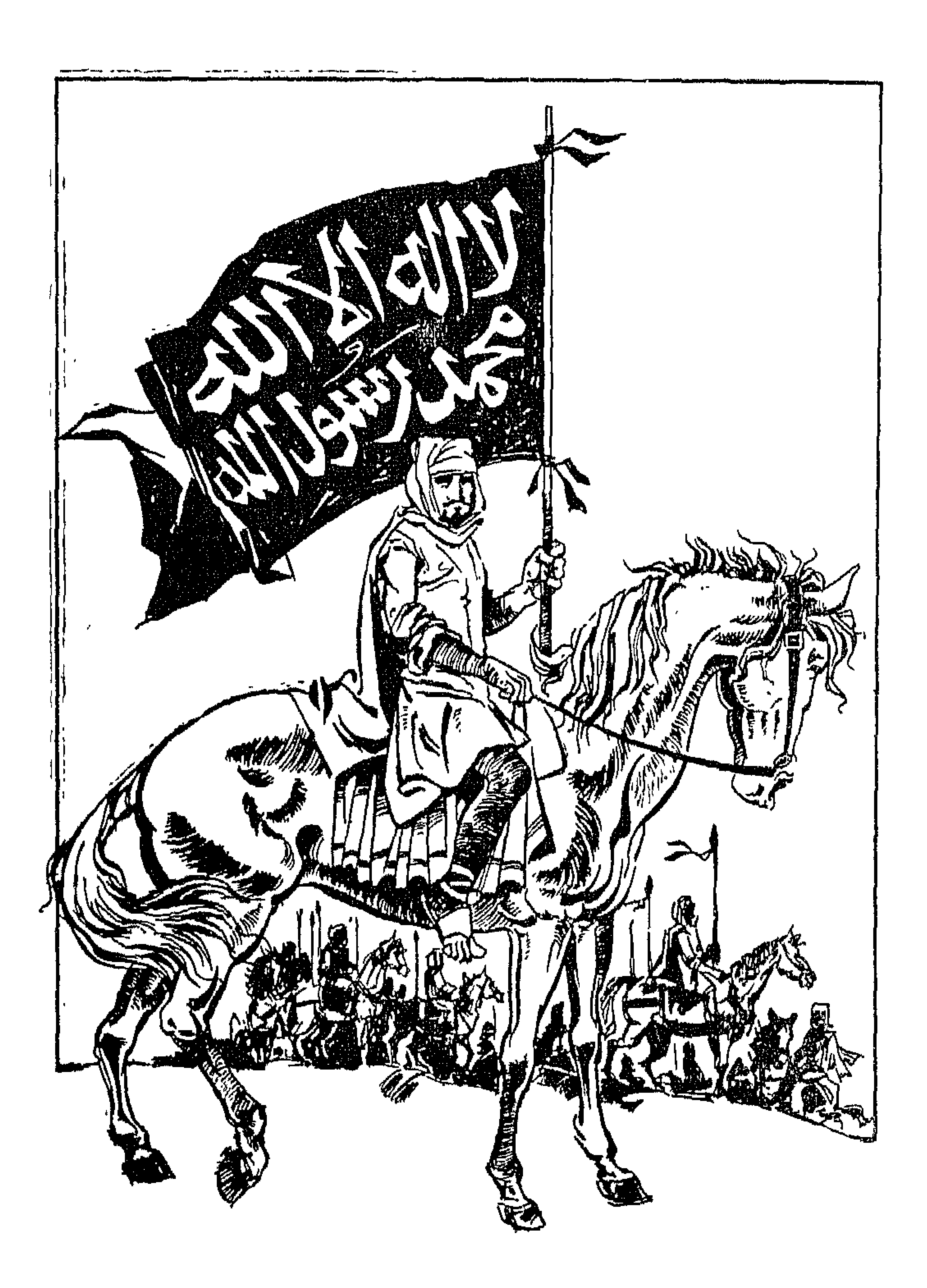
فى الموقف الأول كان أبو عبيدة قائد جيوش المسلمين فى الشام ، وطالت الوقفة عند اليرموك ، فقرر الصديق أبو بكر — القائد الأعلى — أن يقوم بعمل حاسم ضد الروم وقال قولته المشهورة :

« والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وبعث خالداً من العراق إلى الشام أميراً على مجموعة الجيوش العربية التى كان يقودها أبو عبيدة .

وتقبل أبو عبيدة التغيير فى القيادة بالرضا ونزل عن إمارة الجيوش لخالد ، فقد كان أبو عبيدة غير مفتون بالدنيا ومظاهرها .

أما الموقف الثانى ، فكان أيضاً فى الموقع نفسه ، بعد وفاة أبى بكر فقد قرر الخليفة عمر بن الخطاب إجراء تبديل فى القيادة وجعل أبا عبيدة


لا اله الا الله
محمد رسول الله

قائداً عامًّا وبعث إلى أبى عبيدة بقرار عزل خالد وتوليته القيادة .. فأخفى أبو عبيدة الأمر ، واستمر فترة فى مكانه خاف خالد حتى تحسن الموقف الحربى وظهرت بشائر النصر . . وقد سئل عن عدم أخذه بلواء القيادة فور وصول الأمر فقال :

« ما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل » .

فالهدف عند أبى عبيدة كان النصر للمؤمنين ، ولم تكن له غاية شخصية من شهرة أو جاه أو منظر .

كان قائداً بسيطاً شديد الإيمان ، لم يسع إلى القيادة ولكن خبرته بها واستبساله فى القتال وطموحه الشديدة لهزيمة الأعداء كانت هى عوامل توليته القيادة .

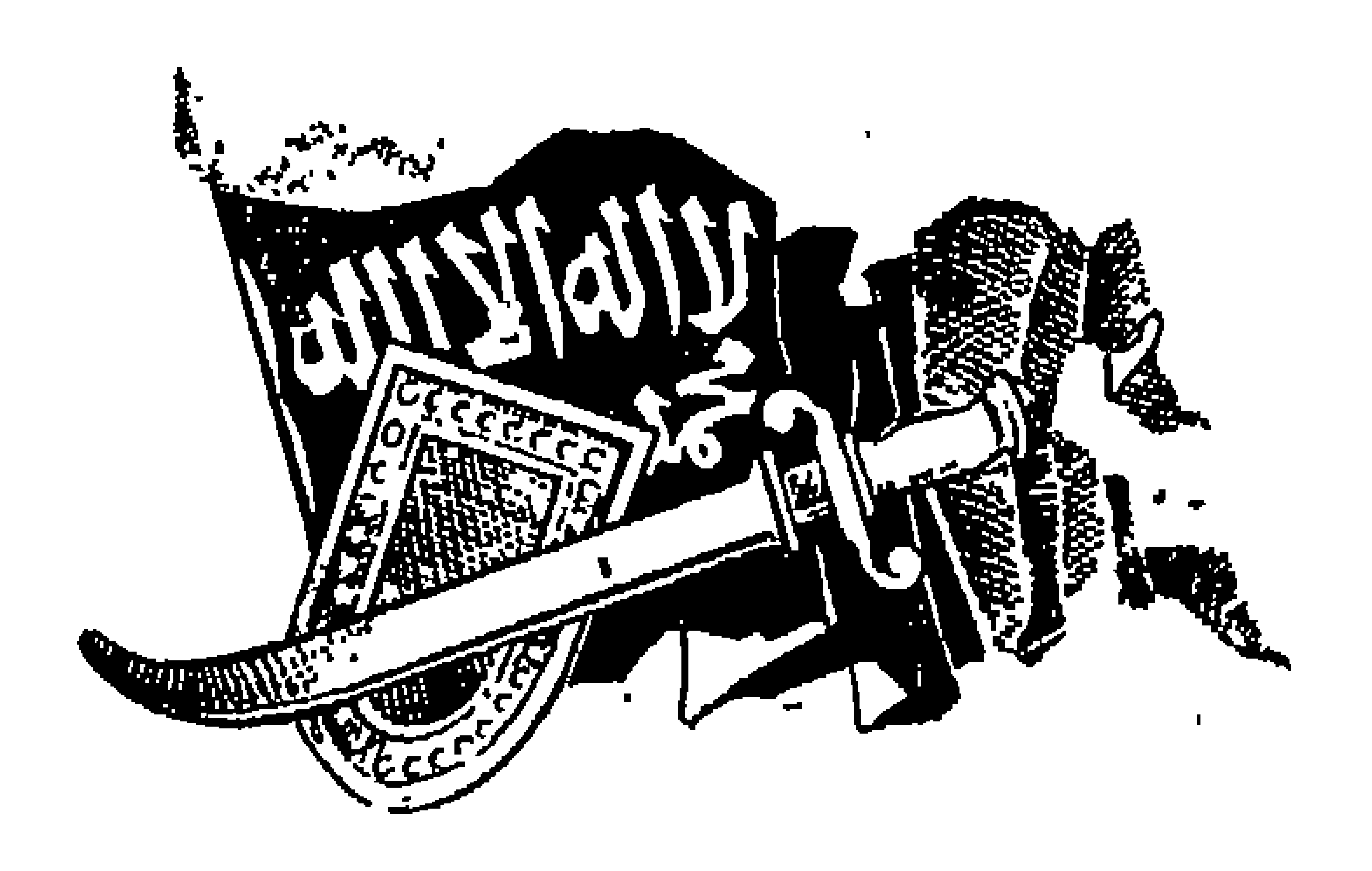
وعندما مات أبو عبيدة لم يجدوا فى بيته سوى أدوات الحرب وقطع خبز جافة فبكى عمر بن الخطاب وقال :

« لقد غيرتنا الدنيا جميعاً إلا أبا عبيدة » .

فإذا كانت القيادة هى تولى أمور الجيش لإحراز النصر ، فهى واجب خطير ورسالة جديرة بالاحترام والتقدير ، ما دامت لم تشبها شائبة من التظاهر أو الطمع الشخصى أو الأنانية .

وهكذا كان أبو عبيدة عامر بن الجراح نموذجاً طيباً للقائد النزيه ، الذى وهب نفسه للدعوة وللجهاد ولم يأخذ شيئاً لنفسه .

قيادة سعد



عندما استشار عمر بن الخطاب أهل الرأى فيمن يوليه حرب الفرس أشاروا عليه بسعد بن أبى وقاص ، وقالوا عنه : « إنه الأسد عادياً » ، فسلم إليه قيادة الجيوش الإسلامية فى تلك الحرب الفاصلة .

ولا ريب أن الإجماع الذى تم لسعد كان له من المقدمات ما يسوغه ، وذلك بما عرف عن هذا الجندى الكبير والمسلم العظيم من صفات ومميزات قبل أن يتولى هذه القيادة الضخمة ، كما ثبت فيما بعد أن هذا الإجماع كان فى موضعه ، فقد كان سعد عند حسن الظن بكفايته ومقدرته حين مضى لمهاجمة دولة الأكاسرة ، وحين راح يدفع الجيوش العربية البداثية من بلد إلى بلد وينتصر بها فى معركة بعد معركة ويرفع راية الإسلام ولواء العروبة ويكتب سطوراً خالدة فى كتاب البطولة العربية .

لقد كان سعد من شباب محمد — صلى الله عليه وسلم — الذين استجابوا لدعوته وتأثروا برسالته واغترفوا من حسناته وبركاته ، فصفت نفوسهم وصح إسلامهم واشتدت فى الجهاد عزيمتهم وصقلت فى غمار الأحداث شخصياتهم ، فكانوا أبطالا فى ساحات الوغى وساعات الشدة ، يقبلون على الموت فيفر منهم الموت ، وتنتصر قلتهم على أضعاف أضعاف عدوهم . . وبهذا هزموا المشركين ، وقضوا على المرتدين فأزالوا دولة الروم وقضوا على سلطان الفرس وصاروا من أصحاب الفواصل فى التاريخ .

إن فى حياة سعد بن أبى وقاص صفحات مجد وفخار تسجل كل منها مرحلة من حياته الحافلة ، وتشهد بعظمة نفسه وقوة إيمانه وشدة بسالته ووفرة كفايته .

وأنت حين تقلب هذه الصفحات تجده الأسد عادياً ، سواء فى الجاهلية حين كان فتى مرهوب الجانب موفور الهمة نافراً من طباع الجاهلية وعاداتها ، أو فى مجالات التجارة حين ظهرت براعته فأثرى وغنم ، أو فى هجرته حين وجد من حسن الرأى أن يفر بدينه ، أو فى ميدان القتال حين أعطى اللواء فأثبت أنه من أعظم القادة فى التاريخ كله . . وأخيراً تراه يستأثر بالتقدير والتوقير حين تسعى إليه الخلافة وهو يأباها ، وحين يشتد التنافس على الحكم فيعتزل الفتنة وينأى عن مواطن الإغراء والشبهة . . حتى يحين حينه ويلقى ربه راضياً مرضيًّا .

كانت صناعة سعد رمى النبل ، وكان ماهراً فى الرمى لا يخطئ ولا يخيب ، وقد رمى يوم أحد ألف سهم ، وكان رسول الله — صلى الله عيله وسلم — يقول : ارم فداك أبى وأمى ، ارم أيها الغلام الحرور « أى الصائب » .

وتناول سعد سهماً لا نصل له ، فقال له النبى — صلى الله عليه وسلم : ارم . . فوقع السهم فى نحر « حيان » أحد الفرسان الأشداء فى صفوف المشركين ، فدعا له النبى — صلى الله عليه وسلم — أن يسدد الله رميه ويجيب دعوته .

وكان سعد يقول :

« إنى لأول العرب رمى بسهم فى سبيل الله . والله إنا كنا لنغزو مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما لنا طعام إلا التمر وورق الحلبة » .

وفى صحبة النبى — صلى الله عليه وسلم — مضى سعد ينمى مواهبه ويزيد تجاربه ويصقل شخصيته ويتم استعداده حتى أتيحت له الفرصة ليضع قدمه فى ساحة التاريخ ، ويقرن اسمه بأعظم المعارك الفاصلة دون أن يخرجه ذلك المجد العظيم عن صفاته الأصيلة وطباعه الملازمة ، فكان كثير التقوى ، شديد الورع ، كبير الإخلاص ، عميق الإيمان ، لا تخدعه الدنيا ولا تصرفه عن طريقه أعظم المغريات . . ولو كانت إمارة المؤمنين ! فقد كان أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد إليهم عمر ، وكانت له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأباها وقال له ابن أخيه « إن مائة ألف سيف تريدك على الخلافة » ، ولكنه رفضها .

ومن عجب أن هذا القائد البدائى الذى لم يتعلم الحرب فى مدرسة ولم يضع الخطط على الورق ، قد برع فى قيادته إلى درجة يستوى عندها مع كبار العسكريين فى جميع الأزمان ، وقد أبدى من المرونة والثبات والحنكة ما يجعله نداً لأعظم القادة فى التاريخ كله ، وقد انفرد بتنفيذ مبادئ الحرب قبل أن يعرفها العالم الحديث . . فتراه فى معاركه يبدأ بدراسة موقف العدو ، ويجمع المعلومات من مصادر شتى ، ثم يبدأ بالسيطرة على الموقف لتكون لقواته ميزة « المبادأة » ويمعن فى التستر ليحافظ على مبدأ المفاجأة ، ويبعث العيون تكشف تحركات العدو حتى « يضمن الوقاية » وحين يبدأ الهجوم تراه يضرب بشدة ليكون فى الساعة

الحاسمة أكثر قوة وأعظم جنداً ، محققاً مبدأ « الحشد » .. وغير ذلك مما سنذكره مفصلا فى المعارك التى خاضها وقادها سعد بن أبى وقاص :

انظر إليه فى أول اختبار :

عقد له النبي لواء إلى الحراز ، بناحية المدينة ، فخرج على رأس عشرين رجلا من المهاجرين — مشاة — فكانوا يكمنون النهار ويسيرون الليل .

فإذا سألت عن سر هذا « التكتيك » قيل لك : إن هذا مبدأ من مبادئ الحرب يطلق عليه « الوقاية » يعمد إليه القائد الفطن حتى لا تظهر تحركاته للعدو فيظل أمره خافياً مستوراً حتى يمكنه مفاجأة خصمه والقضاء عليه . . وهذا هو ما فعله المارشال ويفل فى تقدمه على المعسكرات الإيطالية فى الصحراء الغربية عام ١٩٤١ فى الحرب العالمية الثانية ، فحقق له شهرة واسعة !

وكان سعد والزبير وعلى بن أبى طالب من الخبراء فى أعمال « المخابرات » ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — يبعث بهم لاستقصاء أخبار خصومه فيعودون إليه بأدق المعلومات ، وهذا هو ما تفعله الجيوش الحديثة . . حتى ليقال : إن الجيوش بمخابراتها .

وعندما انهزم المشركون فى وقعة أحد بعث النبي — صلى الله عليه وسلم — سعداً خلفهم ، لكى يستطلع أخبارهم ويعرف اتجاههم . . فإن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الطعن ، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهى الغارة . . فخرج سعد يتبعهم فى حذر وخفاء حتى بلغ نقطة « المراقبة »

فإذا هم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل ، فعاد فأخبر النبي — صلى الله عليه وسلم — بعدولهم عن معاودة الهجوم !

وكان سعد يعلم أن أهم هدف فى الحرب هو رأس الجيش ، أى قائده ، فلما كانت إحدى الليالى الحافلة بالأحداث مضى سعد إلى مكان القيادة ليحمى النبي القائد . . قالت عائشة : سهر رسول الله ليلة مقدمه المدينة فقال . ليت رجلا صالحاً من أصحابي يحرسنى الليلة . . فبينما نحن كذلك إذ سمعنا خشخشة سلاح فقال : من هذا . . ؟ قالوا سعد بن أبي وقاص ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم — ما جاء بك ؟ فقال سعد : وقع فى نفسى خوف على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجئت أحرسه . . فدعا له الرسول — صلى الله عليه وسلم .

بدأ سعد عملياته فى دائرة صغيرة ، ولكنها سرعان ما اتسعت ، فانتقل من قيادة عشرين رجلا إلى مائتين إلى عدة مئات فى المعارك التى خاضها ضد المشركين ، وقد امتاز خلالها بثلاث ميزات :

١ — دقة التصويب . . حتى إنه نثر كنانته فى إحدى المواقع ، وكان فيها عشرون سهماً ما منها سهم إلا وجرح إنساناً أو دابة . . وكان النبي — صلى الله عليه وسلم — يقول له : ارم ، فداك أبى وأمى .

٢ — شدة الثبات . . وقد ثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم فى معركة أحد بين خمسة عشر رجلا ، منهم سبعة من المهاجرين . . أبو بكر — عمر — عبد الرحمن بن عوف — على — طلحة — أبو عبيدة — الزبير وسبعة من الأنصار .

٣ ـ وفرة الفطانة . . ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يكلفه هو وعلى والزبير بأعمال المخابرات وتقصى خطط المشركين ونواياهم .

انتصر الإسلام على الشرك ، وقضى على الردة ، واستتب له الأمر فى شبه الجزيرة . . وبلغت جيوش المسلمين مشارف العراق وأصبحت على حدود الوطن العربى والشام وخليج فارس حيث كانت أعظم دول ذلك العهد تزهو بتقدمها ، وتتمنع فى حصونها ، وتسيطر بجيوشها المنظمة المدربة وأسلحتها المبتكرة النافذة .

وبدأت مرحلة نشر الدعوة الإسلامية ، وأخذ خليفة المسلمين أبو بكر يعد العدة للفتح فبعث إلى العراق بخالد بن الوليد وعياض بن غنم والمثنى بن حارثة والقعقاع بن عمرو ، وتم لخالد بن الوليد إخضاع الحيرة وقضى على دولة المناذرة التى كانت تحكم العراق من قبل الأكاسرة ، وانصرف خالد إلى الشام مستخلفاً المثنى على العراق وحدث أول صدام كبير بين العرب والفرس ، فانهزم الفرس وكان ذلك نذيراً بانحلال دولتهم ، والقضاء على قوتهم الغاشمة .

وعندما ولى أمر المسلمين الخليفة عمر وفد عليه المثنى بن حارثة يستأذنه فى حرب الفرس ، وبخاصة أنهم فى حالة اضطراب بعد وفاة ملكهم شهريار وتنازع الأمراء والقواد على الحكم ، فدعا عمر إلى الجهاد ، وجعل أبا عبيدة بن مسعود على رأس القوة السائرة إلى العراق ، وبدأت المناورات بين العرب والفرس ، وأخذ كل من الفريقين يستعد للمعركة الفاصلة .

ورأى عمر أن اساعة الحاسمة أقبلت ، فأخذ يستنفر الهمم ويجمع

المجاهدين فانسابت الإمدادات وأقبلت القبائل يدفعها روح الجهاد ونفحة الإسلام وصوت الحق :

سالت عليه شعاب الحى حين دعا   أنصاره   بوجوه   كالدنانير

وعندما استشار الخليفة كبار المسلمين فيمن يعهد إليه بالقيادة أشاروا عليه بأن يعهد بها إلى سعد بن أبي وقاص ، وقالوا إنه الأسد عادياً.. فأمره على حرب العراق وناط به غزو فارس وأسر إليه بوصيته التالية :

« إنى وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق . فعود نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتاداً ، فعتاد الخير الصبر » .

« يا سعد : عليك بالثبات عند الشدائد ، والتجلد فى المكاره ، فاصبر وصابر ، والله مع الصابرين » .

وقد حقق سعد بن أبي وقاص نصراً كاملا على الفرس فى معركة القادسية وقضى على قواتهم قضاءاً نهائيا استسلمت بعده حاضرة الفرس « المدائن » ودخلها سعد وهو يتلو من آيات الله البينات .

« كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين » .

وهو إلى جانب كفايته الحربية كان من أعظم المسلمين شأناً وأبقاهم أثراً ، واشتهر بصدق الحديث ودقته فى الرواية حتى قال عنه عمر بن الخطاب :

« إذا حدثك سعد عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلا تسأل عنه غيره » .

وكان كريم الأخلاق ثابت الوفاء ، وقد روى عنه أنه كان بينه وبين خالد كلام فذهب رجل يقع فى خالد عند سعد ، فقال له سعد :

« مه ! إن ما بيننا لم يبلغ ديننا » .

وهكذا أغلق فم النمام المغتاب .

وكان سعد رجل مبادئ فقد أسلم عن اقتناع ومضى فى صحبة الرسول وخلفائه عن عقيدة ، فإذا صادفه أمر على غير ما يرى سارع إلى المجاهرة به ، حتى إنه كان يراجع النبي – صلى الله عليه وسلم .

وقد كان أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد إليهم عمر ، وكانت له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأباها ، حتى قال ابن أخيه هاشم إن مائة ألف سيف تريدك . . فرفض ، واعتزل الفتنة .

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الأمر له قال :

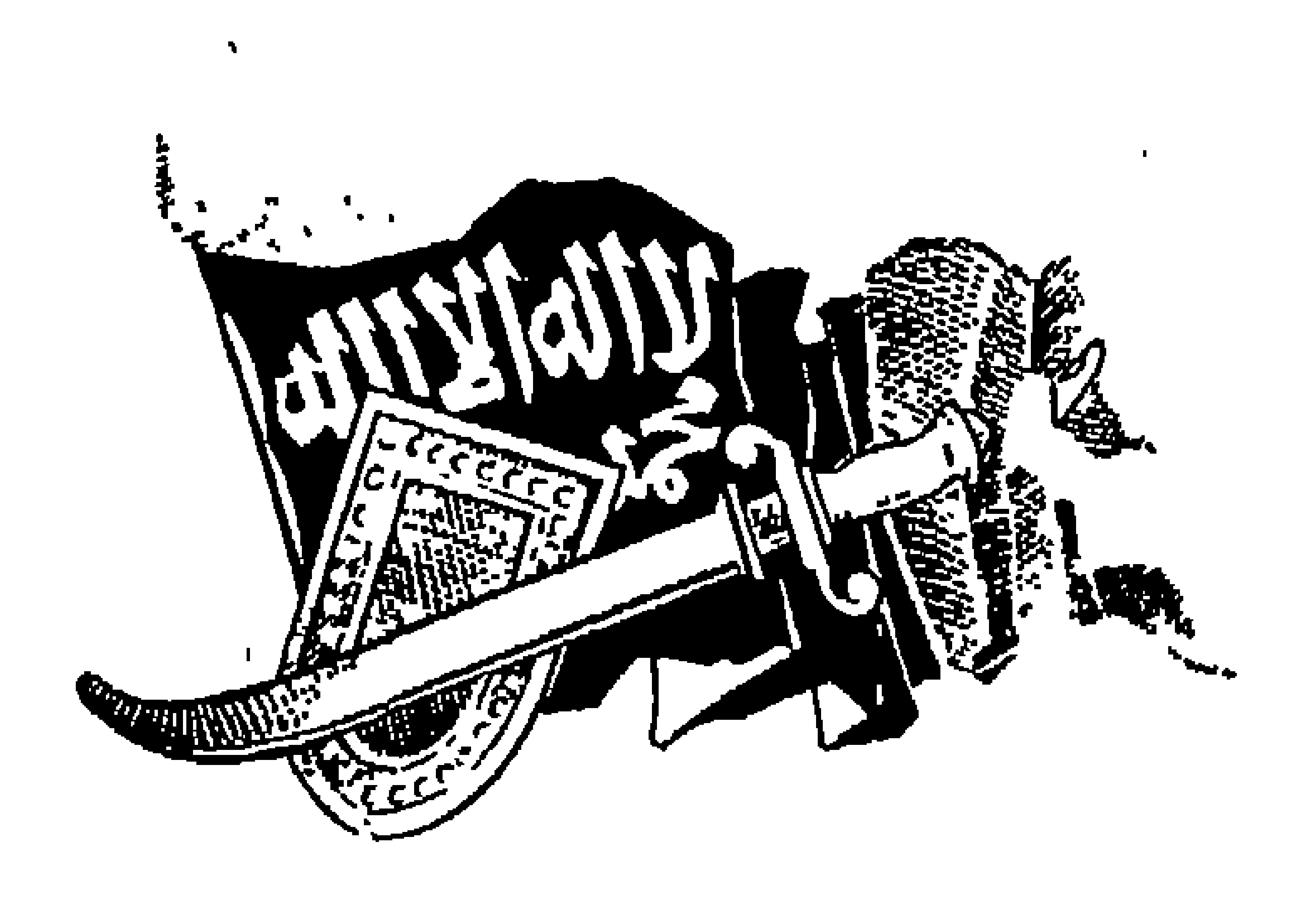
السلام عليك أيها الملك .

فضحك معاوية وقال : ما كان عليك يا أبا إسحق لو قلت يا أمير المؤمنين .

فقال سعد : والله ما أحب أنى وليتها به ! (يقصد أنه وليها بالسيف)

وعندما حضرته الوفاة طلب جبة له من الصوف كان قد لقى المشركين فيها يوم بدر فأخفاها ليوم وفاته ، ومات وهو فى الثالثة والثمانين من عمره وكان آخر العشرة الكرام موتاً .

قيادة صلاح الدين



اقترن اسم صلاح الدين بأمرين جليلين فى تاريخ الأمة الإسلامية .

أولهما : إيمانه بضرورة توحيد الجيوش الإسلامية فى مواجهة أعداء العروبة والإسلام .

وقد تحقق له ذلك وقاد الجيش العربى الموحد ، فقضى على العدوان الصليبي وحقق للوطن العربى الكبير الوحدة والعزة والمنعة .

وثانيهما : انتصاره العظيم على أخطر أعداء العروبة والإسلام ، الذين أقبلوا تحت ستار الصليب ليفرضوا سطوتهم واحتلالهم البلاد الإسلامية . . هذا الحدث الخطير فى التاريخ الذى اشتهر باسم « الحروب الصليبية » .

لم يكن صلاح الدين ملكاً بالوراثة ، أو حاكماً بمقتضى الصدفة ، ولكنه جاء من عامة الشعب عربيًّا مخلصاً لعروبته مسلماً غيوراً على دينه ، وقائداً من الذين قلما يجود بمثلهم الدهر ، وعبقريًّا من أصحاب التاريخ الذى يختصهم بأحداثه الباهرة ووقائعه الفاصلة فيؤثرون فى مصاير أممهم ومستقبل العالم بأسره .

إنه أحد الكبار الذين أنجبتهم الدنيا فاعتز به الشرق وازدان به تاريخ الجهاد فى الدين والوطن .

أتته الوزارة منقادة . . فأحسن القيام بشئونها وأجاد تصريف أمورها ، فى ولاء وإخلاص وكفاية ، وانتهت إليه القيادة فنهض بأعبائها واضطلع

بمسئولياتها ، وخفّ إلى الحرب موفور العدة مسدد الخطة فأحرز غاية النصر وبلغ قمة الظفر .

عاصر صلاح الدين فترة المحنة الكبرى التى حلت بالمسلمين والحادثة الشنعاء التى تعرض لها العرب والشرق ، فأسرع يأخذ بيده القوية راية الإسلام ويدفع بقيادته الرشيدة جيش المسلمين فصد الخطر وقضى على قوات الشر وحال دون تعديل خريطة العالم .

لقد كانت الحرب الصليبية حادثة جنون من حوادث التاريخ الشاذة جاءت من الغرب كالريح الهوجاء تذكوها النعرة الدينية وتدفعها الأطماع الأشعبية فشغلت من عمر الدهر قرنين كاملين عبأت خلالهما أوربا قوات تستظل بالصليب وتدعى حماية بيت المقدس وتنشد دحر المسلمين وقهر الوطن العربى .

وقد اعتبر بعض الدعاة هذه الغارات حرباً دينية بفكرة أنها تتجه إلى الأماكن المقدسة تحمل شارات الصليب ، ولكن ثبت قطعاً أنها كانت أيضاً حرباً سياسية فقد أرادت الدولة البيزنطية أن تستعيد ما كان لها فى مصر والشام وفلسطين منذ فتح عمر بن الخطاب بيت المقدس ، ولهذا جرت اشتباكات عديدة على مر السنين بين « الفرنج » والمسلمين ، ومن أشهرها معركة « عمورية » التى انتصر فيها الخليفة المعتصم فى العصر العباسى الأول ثم الوقائع التى دارت بين البيزنطيين ودولة الحمدانيين وفيها تم إخراج العرب من جزيرة كريت واستيلاؤهم على بعض بلاد الشام ، إلى أن جاءت دولة الفاطميين فى مصر والسلجوقيين



فى الشام فاستعادوا المدن والحصون وشددوا النكير على البيزنطيين .

أما الأقطار الإسلامية التى كان يتهددها ذلك الخطر فكانت موزعة بين خلافتين : الخلافة الفاطمية فى مصر ، والخلافة العباسية فى بغداد .. وكانت جميعاً تعانى من الوهن وسوء الحكم وشيوع الفرقة ما يغرى بالإغارة عليها واستباحة حماها .

وجاءت غارة الصليب الأولى فى سنة ٤٩٠هـ (١٠٩٦م) وقد نجحت فى تكوين مملكة لاتينية فى القدس وأنطاكية والرها .

وحدثت الغارة الثانية فى سنة ٥٤١هـ (١١٤٧م) فى عهد السلطان نور الدين محمود ، ولم تحقق أهدافها ..

أما الغارة الثالثة فكانت فى سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى سدد للصليبين ضربة قاصمة فى « حطين » .

كان صلاح الدين يرى أن مصدر القوة للشرق فى « مصر » وأن طلعة الجهاد تبدأ من القاهرة ، فأنشأ سوراً ضخماً وقلعة منيعة كما نظم جيشاً قويًّا مهيباً ، وكانت أمنيته أن يوفر للبلاد أسباب المنعة وعوامل القوة فتلتف حولها قلوب المسلمين وتسعى للاتحاد معها بقية الأقطار . . فتتكون قوة كبرى موحدة لقهر الصليبيين وإجلائهم عن فلسطين .

وقد أجرى صلاح الدين إصلاحات عدة فى مصر والشام فنظم شئون الحكم وأرسى عوامل السكينة والثبات ، وقضى على سلطان الأمراء ودخل حلب فاتحاً غازياً فى شهر يونيو ١١٨٣ ثم خضعت له الموصل فى شهر فبراير ١١٨٥ ، وبذلك جمع كلمة المسلمين وقضى على العاصين

وأعد نفسه وبلاده للجهاد الأكبر .

كانت سياسة صلاح الدين تتلخص فى أمرين .

أولهما — توحيد كلمة المسلمين .

ثانيهما — طرد الصليبيين من فلسطين .

وقد تم له تحقيق الهدف الأول فأصبح هو السلطان غير منازع فى مصر والشام جميعاً، ثم شرع يحقق هدفه الثانى وهو : دحر الصليبيين . وكان بين الطرفين هدنة نقضها الصليبيون باعتدائهم المنكر على إحدى قوافل الحجاج المصريين ، مما أثار سخط المسلمين ، فلما انتهى أجل الهدنة تحركت قوات صلاح الدين إلى المعركة الحاسمة التى طال ارتقابها .

وفى « حطين » حدثت معركة كبرى من معارك التاريخ الفاصلة التى غيرت مصائر الشعوب وحددت معالم الدول ، فقد التقت الجيوش الإسلامية المتحدة بالجيوش الصليبية المعتدية ، وقائدها يحمل « صليب الصلبوت » . . فهزمهم صلاح الدين هزيمة منكرة وأسر ملكهم وأسقط الصليب من يده وأمر بقتل « أرناط » الأمير الصليبي — الذى كان شديد الخصومة للمسلمين — انتقاماً لما حدث لقافلة الحجاج المسلمين عند مرورها بالكرك .

ولم تستطع الحملة الثالثة من حملات الصليب أن تغير من واقع الأمر شيئاً فقد ظهر للجميع مدى ما يتمتع به السلطان صلاح الدين من كفاءة ومنعة ، وكان رتشارد الأول ملك الإنجليز (قلب الأسد) قد أعجب بصلاح الدين وأدرك أن هزيمته غير ممكنة وأن اتحاد الأقطار الإسلامية قد

ضيع الفرصة على الصليبيين ، فكتب إليه يعرض شروطاً للصلح لم يقبلها صلاح الدين ، ورد عليه برأيه النهائى فى هذا الموضوع فى كتاب تاريخى جدير بالذكر والتقدير :

« أما القدس فهو لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما عندكم ، فإنه مسرى نبينا ومجمع الملائكة .. فلا تتصور أننا ننزل عنه ! أما البلاد فهى لنا فى الأصل ، واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان فيها من المسلمين فى ذلك الحين » .

وهى رسالة صالحة لأيامنا هذه برغم مرور مئات السنين .

ولو أننا أخذنا بهذه الرسالة فجعلناها سياسة . . لحق للبلاد العربية النصر المبين .

وخلاصة الرسالة أو السياسة : أن بلاد العرب للعرب وحدهم . وأن وجود الصهيونيين ظاهرة شاذة كوجود الصليبيين بالأمس ! .

وهدف الرسالة أو السياسة هو توحيد الصفوف وجمع كلمة العرب ، وبهذا نفوت الفرصة على الصهيونية ومن ورائها الاستعمار ، ونقضى على كل نفوذ أجنبي القضاء النهائى .

حقـًّا أن التاريخ يعيد نفسه ..

وأن عهداً لصلاح الدين يوشك أن يعود .

معركة بدر



وقعت غزوة بدر يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية للهجرة .

كان الخلاف قد احتدم بين المسلمين والمشركين وتكررت الوقائع بين الفريقين وصار كل منهما يتأهب للآخر ويتعرض له ما واتته الفرصة ووسعته الحيلة ، وأصبح على المسلمين الذين طال بهم الصبر على أذى قريش وتعديها أن يكونوا على حذر وألا يقفوا عند حدود المدافعة أو الاتقاء .. كما فطنوا إلى المبدأ القائل بأن خير وسائل الدفاع هو الهجوم .

كذلك اتسعت صورة الحرب بين المسلمين والمشركين وتعددت أسلحتها وأصبح العامل الاقتصادى ممثلا فى المعركة أى أن الهدف لم يعد مجرد لقاء بالأسلحة أو هزيمة يتلوها انسحاب أو فرار ، وإنما صار الاستيلاء على أموال وممتلكات العدو هدفاً قائماً بذاته أو محسوباً بين أهداف القتال .

وعلى هذين العاملين — التعرض ، وإصابة أموال قريش — وضعت خطة المسلمين لغزوة كبيرة قدر لها أن تحدث قرب ماء بدر وتشتهر فى التاريخ الإسلامى باسم غزوة بدر الكبرى .

وقد تميزت هذه الغزوة بأفكار ومبادىء لم تجد بمثلها معركة سابقة لها ، كما انتهت إلى دروس ونتائج جديرة بالفحص والاعتبار ، ولهذا نقدم

أحداث وقعة بدر حدثاً حدثاً لكى نكشف عن كل أمر فى حينه مع السياق :

١ ــ خرج أبو سفيان فى خريف السنة الثانية للهجرة فى تجارة كبيرة يقصد الشام ،وكان نبأ القافلة قد بلغ المسلمين متأخراً ففاتهم لقاؤها فى ذهابها وخططوا لاصطيادها فى العودة وهى محملة بأموال كثيرة .

فالهدف كان التعرض لقريش والاستيلاء على أموالها .

وكان ذلك رداً على عدوانها القديم المتكرر واستخداما لميزة المبادءة ، وأيضاً إصابتها فى الأموال وتكبيدها الخسائر وإرهابها حتى تحسب حساب المسلمين ويثبت فى ذهن زعمائها أن المسلمين أصبحوا قادرين على المواجهة وعلى رد الصاع صاعين .

٢ ــ استعد المسلمون للقاء قافلة تجارة قريش فى عودتها من الشام وتجمعت المعلومات عنها فإذا هى تجارة كبيرة يحملها ألف بعير ويحرسها أربعون رجلا .

والحصول على هذه المعلومات يوضح كيف بدأ المسلمون أعمال الدوريات والمخابرات مبكراً ، فحصلوا على بيان الأموال ، وتوقيتات العودة ، وطريق القافلة فى إيابها .

٣ ــ خرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المدينة وحشد رجاله على بعد ميل خارج المدينة ــ عند قبر أبى عتبة ــ حيث استعرض ثلثمائة وخمسة من المتأهبين للعملية المقبلة بينهم أربعة وستون رجلا من المهاجرين والباقى من الأنصار ، والجميع تحت لواء مصعب بن عمير ،

وحمل المهاجرون راية الأنصار والأنصار راية أخرى .

٤ ــ كان المشركون يتوقعون أن يتعرض المسلمون لهم ، فأرسلوا إلى مكة يستنفرون القوم إلى أموالهم فخرجوا مسرعين لنجدة قافلتهم .

٥ ــ وبعد أن تم للرسول(صلى الله عليه وسلم)تعبئة المسلمين شاورهم فى الأمر ، تماماً كما يحدث فى اجتماع مجالس الحرب العصرية للنظر فى الموقف ووضع الخطة .

وهكذا استطلع القائد رأى كبار أعوانه ووجد منهم إجماعاً على خوض المعركة،فارتحل بهم إلى ساحة العمليات المرتقبة، قريباً من بدر .

٦ ــ وفى الموضع الذى اختارته القيادة للقاء العدو ، بدأ الاستعداد وهو ما يعبر عنه فى العرف العسكرى «بالأعمال العادية فى الموقع» ــ وكان فى مقدمة ذلك إرسال طوف (داورية) استطلاع اشترك فيه علي ابن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص .

ومن هنا تتضح حقيقتان كبيرتان :

ــ الأولى : أهمية الاستطلاع والحصول على المعلومات .

ــ الثانية : أن القائد الملهم أخذ فى اكتشاف الكفايات الصاعدة، فاختياره لهؤلاء الثلاثة ــ الذين أصبحوا فيما بعد من مشاهير قادة العرب فى التاريخ ــ يؤكد النظرة الثاقبة ويدل على أنه فى ظل القيادة الرشيدة تبرز الكفايات ويلمع أصحاب المواهب ، ولقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أستاذ المدرسة التى أنجبت للإسلام والعروبة القادة الميامين الذين أحرزوا النصر فى شتى المعارك وحققوا أعظم الفتوح ووضعوا خريطة

العالم الإسلامى وأرسوا أساس الوطن العربى الكبير .

٧ ــ تحركت داورية الاستطلاع فى حذر وبراعة واقتربت إلى أقصى ما تستطيع من تجمع قريش ، واستطاعت أن تلقى القبض على رجلين شاهدى عيان ، وعادت بهما الداورية إلى حيث تم استجوابهما وأدليا بمعلومات مفيدة .

وبناء على المعلومات بدأ الحديث فى الخطة .

لم ينفرد بالرأى ولم ينهض بالمسئولية وحده ، وإنما استشار أصحابه وأخذ رأى القادة حتى إذا جاء أحدهم بالفكرة الطيبة والرأى الصائب وافق عليه ووضعه فى الخطة ولم يأنف ــ وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ــ أن ينزل عند رأى أحد قادته المجاهدين البسلاء حين أشار بتعديل الأوضاع وتبديل الخطة .

وكذلك واتت فكرة مشرقة سعد بن معاذ فكاشف بها الرسول (صلى الله عليه وسلم)قال يا نبى الله : ألا نبنى لك عريشاً تكون فيه ونعد عنده ركائبك . ثم نلقى عدونا .. فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أصبناه ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبًّا منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك » .

فأثنى عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ودعا له بخير ، ثم بنى عريشاً فكان فيه .

إن عرض فكرة سعد واستجابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) لها تكشف عن أهمية الشورى وضرورة إشراك القادة فى وضع الخطة وتشجيعهم على إبداء الرأى وتقديرهم إذا تقدموا بأفكار طيبة .

والفكرة التى عرضها سعد تكشف عن « حاسة الحرب » وفن تقدير الموقف . فإن هذا المجاهد قد أدرك أن العدو متفوق فى العدد ، وأنه إذا التقى الجمعان فقد تتغلب الكثرة ، فرأى أن يضع احتياطيًّا فى موقع القيادة التى يتولاها الرسول ، وأن يكون الاحتياطى خفيف الحركة حتى يستطيع أن يسرع إلى المدينة لاستنفار المؤمنين للحاق بالمعركة فيشتد الضغط على العدو – وبخاصة بعد الموجة الجديدة – إلى أن يتحقق الفوز.

وهكذا استخدم المسلمون الأول « الاحتياطى الخفيف الحركة » الذى تدرسه المعاهد والأكاديميات الحربية فى زمننا هذا بعناية فائقة إلى حد القول المأثور بأن أية خطة لا تشتمل على احتياط لا تكون خطة ناجحة.

وقبل أن يبدأ القتال كان المسلمون قد تم حشدهم فى المكان الملائم والوقت الملائم ، كما أنهم نظموا قوتهم ومياههم كما ردموا البئر التى قدروا أن تستخدمها قريش .

فلما ارتحلت قريش وأقبلت على الساحة التى اختارها المسلمون واستعدوا فيها اكتشفوا أن عدد المسلمين أقل بكثير مما هم عليه ، وقال قائل منهم : « غر هؤلاء دينهم » .

ونزلت الآية الكريمة :

« إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ، ومن

يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » .

كان عدد المسلمين ثلثمائة وعدد المشركين ثلاثة أمثال المسلمين :
أى أن قريشاً كا لها التفوق فى العدد بنسبة ١٠ : ١ .

ولكن هناك قوة أخرى كشفتها لنا وقعة بدر : هى القوة المعنوية ، التى تحدث عنها القواد المعاصرون وجعلوها ثامن مبدأ من مبادىء الحرب المشهورة .

وإذا كان الفرد الواحد من المسلمين يستطيع أن ينازل عشرة أفراد من المشركين ، فلابد أن فيه قوة خفية تشد أزره وتدعم ذاته وتشعره بالفوز .

وفارق كبير بين محارب لايعلم غايته ويخشى أن تحين نهايته ، وبين محارب يعرف هدفه جيدا ويثق بأنه لا محالة حاصل على إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة : أى الجنة .

ودارت المبارزات الفردية على نحو ما كان مألوفاً فى اللقاء ، فتقدم عبيدة بن الحارث وحمزة وعلى فانتصر كل منهم على غريمه وقتله ؟

وقد ناشد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ربه النصر ، ثم انتبه فجأة وقال لأبى بكر :

« أبشر أبا بكر أتاك النصر » .

أى أن القائد أحس بشعور المنتصر .

ودارت رحى القتال واشتد أوار المعركة .

وقال رسول الله ، وهو يشجع المجاهدين :

« والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» .

وإذن فما الذى يمنع المسلم من الاندفاع إلى القتال والاستبسال حتى الموت ، مادامت غاية الغايات هى الجنة .

ولهذا اندفع « عمير بن الحمام » — وكان فى يده تمرات يأكلهن فقذف التمرات من يده — وأخذ سيفه وظل يقاتل ويقتل حتى قتل ، فكان أول قتيل من المسلمين .

وتم نصر الله لعباده المجاهدين فى سبيله ، وحقت على قريش الهزيمة .

ولكن ظل سعد بن معاذ ونفر من الأنصار يحرسون رسول الله فى مقر قيادته خشية كرة العدو .

وهذا مثل رائع فى الحفاظ على النصر حتى لا تحدث ثغرة أو تقع خديعة .

وعنى المسلمون بجميع الأسرى دون قتلهم وكان هناك من يرى « الإثخان فى القتل أحب من استبقاء الرجال » .

وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو ينظر الأسرى :

استوصوا بهم خيراً .

كذلك استشار الرسول (صلى الله عليه وسلم) أصحابه فى أسيرين كانا أشد الناس عداوة وإيذاء للمسلمين ، فأشار عمر بقتلهما ورأى أبو بكر الإبقاء عليهما مع طلب الفدية ، ونزلت الآية الكريمة :

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون

عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم » .

فكانت آية كريمة مكرمة ، فيها تكريم للإنسانية وتعظيم لشأن الإسلام بالارتفاع عن قتل الأعزل الذى لم تعد له قدرة ولم تبق لديه حيلة فلا تعذيب ولا تنكيل ولا قتل للأسير . . وهو ما تشير به قوانين الحرب الحديثة ، وإن كان غير منفذ عند مجرى الحرب وأعداء الإنسانية .

وأخيراً ، لعل أعظم ما كشفت عنه وقعة بدر هو أهمية الروح المعنوية والثقة بالهدف ووحدة القائد والجنود ، واستطاعة فئة قليلة أن تغلب فئة كثيرة بفضل إيمانها وقوة معنوياتها .

وفى هذا نزلت الآيتان الكريمتان :

« وألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » .

و « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

الدروس المستفادة من معركة بدر الكبرى

١ ــ أن الهدف من المعركة ليس الانتصار على القوات العسكرية فحسب ، وإنما الاستيلاء على اقتصاديات العدو أيضاً أو تدميرها .

وفى معركة بدر كان الغرض هو الاستيلاء على أموال وتجارة قريش مما يؤثر فى إضعاف قدرتها على القتال ، ثم تصبح مغنما للمسلمين .

٢ ـ أهمية الشورى والديمقراطية فى قيادة الجيش : وقد كان القائد يستشير رجاله فى كل موضع ويأخذ الرأى فى كل مناسبة ، وقد نزل على رأى الحباب بن المنذر فغير مكان الحشد وأخضع الخطة دائماً للرأى والحرب والمكيدة .

٣ ـ أهمية « الاحتياطى » : فإن أية خطة حربية ينقصها عنصر الاحتياط لا تكون خطة كاملة . ولهذا نفذت فكرة « العريش » التى أشار بها سعد بن معاذ ، لتعزز النجاح فى حالة النصر ، أو لتستنفر القوم إذا ما ظهرت بوادر هزيمة .

٤ ـ أهمية المعلومات : فقبل بدء المعركة أرسل القائد عيونه تأتيه بالأخبار ، كما حصل على معلومات أسير أدلى ببيانات هامة عن مكان تجمع العدو وعن عدده ـ بناء على كمية المؤن ـ وبهذا استعدت قوات المسلمين وهى متيقنة من الموقف .

٥ ـ انتصار القوى المعنوية : فإن عدد المسلمين كان ثلثمائة وعدد المشركين زهاء الألف : كما أن المعركة كانت شديدة وكان النصر رهناً بالصبر والإقدام والبسالة .

٦ ـ انتصار التقاليد العسكرية الرشيدة : فقد رفض القائد الإثخان فى القتل اكتفاء بما لحق بالعدو من هزيمة وارتداد ، كذلك نظر إلى الأسرى نظرة إنسانية ، وقال : « استوصوا بهم خيراً » ، فوضع بهذا وبغيره من الأمثلة الطيبة طرفاً من التقاليد العسكرية العالية المناسبة لكل زمان ومكان .

معـركة أحُـــد



كانت غزوة أحد فى شهر شوال سنة ثلاث هجرية :

وبين غزوتى « بدر » و « أحد » تحركت سرايا الجهاد الإسلامية للقضاء على محاولات قريش وخيانات اليهود ، ومنها غزوة « بنى قينقاع » من يهود المدينة الذين نقضوا العهد بعد غزوة بدر[1] ، ثم غزوة بنى غطفان الذين كانوا ينظمون جموعاً للتحريض والإغارة على المدينة ، وبذلك كانت سرايا الجهاد دائمة الاستعداد لكشف كل محاولة للعدوان والقضاء على أية فتنة أو خيانة . وهى فى تلك العمليات لم تبارح خطة الدفاع عن النفس واتقاء المفاجأة وتحقيق اليقظة الواجبة إزاء محاولات العدو المتربص للثأر من هزيمة بدر والمتطلع إلى استعادة النفوذ والسلطان.

أخذت قريش تستعد للثأر وتجمع الرجال والأموال حتى استقر الرأى على الانتقام . . وقال قائلهم « لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى ندرك ثأرنا أو نموت دونه » ثم تجهزوا بالسلاح والمال ووضعوا أرباح

---

(١) فى ذلك نزلت الآية الكريمة : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون » الآية ٣٦م الأنفال (٨) .

والمعنى : إن المشركين يريدون العودة إلى قتال المؤمنين وصدهم عن دينهم فجمعوا لذلك الأموال وأرباح التجارة وإنهم لينفقونها فى هذا الغرض ولكنها ستذهب هباء وسوف يتحسرون على ضياعها لأن نتيجة عدوانهم ستكون الهزيمة ولأن نهايتهم ستكون جهنم .

تجارتهم فى أغراض القتال .

خرجت قوات قريش تقصد المدينة وقد بلغ عددها ثلاثة آلاف رجل مزودين بالسلاح والمؤن ومائتى فارس وثلاثة آلاف بعير فسارت إلى « الأبواء » ، ثم « العقيق » ونزلت فى سفح جبل أحد على مسافة خمسة أميال من المدينة .

وبلغت أخبارهم النبي (صلى الله عليه وسلم) فاستبشر خيراً وجمع رجاله وشاورهم فى الأمر وبدأت دراسة « تقدير الموقف » و « طرق الحل المتيسرة » وأولها :

هل يتخذ المسلمون خطة الدفاع ؟

أى يتركون المشركين حيث هم – وفى ذلك مشقة عليهم – فإذا هاجموا المدينة قاتلوهم وردوهم .

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

« فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا : فإن أقاموا أقاموا بشرِّ مقام وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم » .

ثم عرض رأى آخر . .

قال رجل من المسلمين :

اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنّا منهم وضعفنا .

هذا الرأى يقضى بالمبادأة وخطة التعرض ، وقد أخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بوجهة النظر هذه واستعد للحرب ولبس «لأمته» ؛ أى ارتدى عدة القتال لا يخلعها حتى تضع الحرب أوزارها ؛

وخشى أصحاب هذا الرأى أن يكونوا قد غلبوا رأيهم ، قالوا يا رسول الله : « استكرهناك ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد » .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما ينبغى لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل .

أى أنه : بعد اتخاذ القرار . . لا رجعة .

وهكذا وضع السلف الصالح الأصول الثابتة والتقاليد المحمودة : حرية الرأى . . الشورى . . القرار .

لقد عبّر القائد عن وجهة نظره : الدفاع .

وعبّر غيره عن وجهة نظر مغايرة : المبادأة أى الهجوم .

وأخذ القائد بوجهة النظر الأخرى ، بعد أن قدر سلامتها ومحاسنها ، ولكن أصحاب النظرة الأخرى ، وهم يثقون فى القيادة ويحترمون القائد راجعوا أنفسهم خشية أن يكونوا قد أثروا بشكل أو آخر فى رأيه .

فكانت إجابته حاسمة : لا رجعة بعد اتخاذ القرار .

أى أن التفكير والمشاورة وإبداء الآراء مكفولة للجميع ومتاحة للمناقشة والمراجعة إلى أن يتخذ القرار . . وبعد اتخاذ القرار لا مجال للتراجع أو التردد . . وإلا فإن العواقب تكون وخيمة .

إن قريشاً قد تجمعت وتحركت واستعدت بكل ما لديها ، ووضعت كل قوتها وجميع مواردها لكى تضرب ضربتها وتثأر من هزيمتها فى بدر وتطيح بقوة المسلمين وتستعيد مكانتها وتنشر نفوذها وتؤمن تجارتها .

وأرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) رجال الكشف والاستطلاع

فعادوا بمعلومات مؤكدة عن الحشد الذى قامت به قريش والأرض التى نزلت بها استعداداً للقتال .

وتحرك جيش المسلمين ، وقوامه ألف مجاهد ، وفى الطريق من المدينة إلى أحد حدثت عدة مواقف تستوقف الانتباه وتحفل بالدروس والعظات .

الموقف الأول : أن الجماعة التى كان رأيها الإقامة فى المدينة والأخذ بمبدأ الدفاع قد ساورها القلق وشغلها الاعتداد بالنفس عن التسليم بحكم الأغلبية ورأى الجماعة، فتوقفت عن المسير وغلبها التردد وداخلتها الهزيمة وقال زعيم تلك الجماعة عبد الله بن أُبَى : أطاعهم وعصانى ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ؟

وهكذا كشف عن نفس قلقة وجماعة مترددة غير مؤمنة .

فماذا يكون وزن هذه الجماعة ، وهل كان استمرارها فى المسيرة — وهى على هذه الحال من فقدان القوى المعنوية — أفضل من انفصالها ، وهل يقلل من العدد ويضعف الحشد .

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

إنها طيبة ، وإنها تنفى الخبث كما تنفى النار خبث الفضة .

أى أن خروج المترددين لا يؤبه له ، إذ لن يجيء بفائدة ، بل هو خير ، إذ يتخلص المعدن الأصيل من الشوائب وبذلك يتحقق النقاء ويبقى الجوهر .

الموقف الثانى ؛ هو أنه عندما انشق المترددون — وكان عددهم

ثلاثمائة – اختلف المسلمون فى أمرهم ، فقالت جماعة نقتلهم وقالت جماعة نتركهم . . وكادت الجماعتان تقتتلان .

واستقر الرأى على ترك الجماعة المتخاذلة تعود من حيث أتت ونزلت الآية الكريمة :

« فمالكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا »[١] .

الموقف الثالث : هو أنه عرضت فكرة لبعض الأنصار . قالوا : يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود .

قال : لا حاجة لنا فيهم .

أى أن القائد لم يتأثر لخروج جماعة كبيرة . وهو موشك على اشتباك حاسم .

ومع ذلك فإنه لا يقبل أن يضم للصفوف جماعة أخرى غير موثوق بها ، وبخاصة بعد أن أثبتت التجارب عدم إخلاص اليهود .

فليس الأمر فى الحرب أمر عدد وعدة ولكنه إيمان وإخلاص وروح معنوية عالية .

وهكذا تخلص جيش المسلمين وهو فى طريقه إلى لقاء كبير من دعاة التردد والهزيمة وأصحاب النفاق والريب، وأصبح جيشاً نقيًّا يعرف

---

(١) الآية ٨٨ م النساء ٤ والمعنى : لقد تخلف المنافقون المترددون عن الجهاد فكيف يختلفون فىأمرهم – وقد ارتدوا إلى الكفر بعد الإيمان . إن نيتهم سيئة وإيمانهم غير صحيح فهم فى حكم الكفرة .

غايته جيداً ويثق بقيادته تماماً .

وسلك الرسول صلى الله عليه وسلم برجاله ـ الذين بلغوا سبعمائة ـ طريقاً لا يرقبه العدو ويصل به فى خفية عن أنظارهم ، حتى يبلغ موقعاً على قرب منهم ، حتى نزل فى عدة الوادى وجعل ظهره وعسكره إلى « أحد » وقال : لا يقاتل أحد حتى آمره بالقتال .

وهذا معناه فى العرف العسكرى الحديث أن القائد أخذ مكانه أقرب ما يكون إلى العدو ونظم صفوفه وأصدر أمره بالاستعداد وحذر من بدء القتال حتى تجيء الساعة المناسبة ـ ساعة الصفر ـ وعندها يصدر أمره بالقتال .

كذلك أخذ بمبدأ الوقاية حينما وضح له من الموقف أن العدو قد يأتى من خلف الموقف ما لم تكن هناك قوة قادرة على وقفه وصده ، وبخاصة إذا استخدم الخيل فى العملية الشاقة ، ولهذا وضع مجموعة من الرماة قوامها خمسون رجلاً بقيادة « عبد الله بن جبير » وحدد مهمته :

« انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا » .

فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك .

أى أن الأمر كان صريحاً : لا يبارح ولا يتعدى حدود مهمته ـ وهى تثبيت العدو ـ مهما كانت النتيجة ، هزيمة أو نصراً .

كذلك نجد فى هذا الأمر ـ إلى جانب مبدأ الوقاية ـ تطبيقاً لمبدأ آخر من مبادئ الحرب وهو : الاقتصاد فى القوة ، إذ شكل قوة

الوقاية من خمسين محارباً يستخدمون النبل لتثبيت الفرسان وحماية القوة الرئيسية .

وعلى الجانب الآخر من أرض المعركة المرتقبة كانت قريش قد حشدت ثلاثة آلاف رجل منهم مائتا فارس وكان على ميمنة الخيل خالد ابن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل .

وبعث الرسول صلى الله عليه وسلم عينين له (أى اثنين من الكشافة) يأتونه بالأخبار فكان على علم بعدد القوات وأوضاعها .

وبدأت المعركة – كما كانت عادات ذلك الزمان – بمبارزات فردية ، فتقدم حامل اللواء من كل فريق ، وتقاتلا ، فانتصر لواء المسلمين .

وخرج سعيد بن أبى طلحة بين الصفين فنادى :

« أنا قاصم من يبارزنى . .

يا أصحاب محمد زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة ، وأن قتلانا إلى النار .

كذبتم واللات لو تعلمون ذلك حقاً لخرج إلى بعضكم » . .

وإذ كانت هذه هى عادة القوم فى إقاعات ذلك الزمن ، فإن النصر فى هذه المبارزة الفردية يتوقف على الشجاعة والمهارة الفردية ، ونتيجة ذلك القتال تؤثر أيما تأثير فى نفوس الجنود .

والذى تقدم يطلب المبارزة بجرأة ظاهرة سعيد بن أبى طلحة أحد المغاوير ذوى الشهرة فمن يقدم على مبارزته ويجد الشجاعة لملاقاته . .

لقد خرج على بن أبى طالب ، فاختلفا ضربتين . . وقتله على .

ثم دارت المعركة ، بعد هذه الفاتحة ، وحمل المسلمون على المشركين فنهكوهم قتلاً .

وكان هذا انتصاراً للقوى المعنوية لأن المسلمين كانوا ثلث عدد المشركين ولأن المسلمين كانوا جميعاً من المشاة ، بلا فرسان . . أى أن القوة العددية كانت للمشركين والقوة المعنوية للمسلمين .

من ذلك أن رسول الله مد سيفه وسأل أصحابه : من يأخذ هذا السيف بحقه .

فقال أحد الرجال الشجعان «أبو دجانة» ، وما حقه يا رسول الله، قال : أن تضرب به فى وجه العدو حتى ينحنى .

قال أبو دجانة : أنا له يا رسول الله بحقه .

وقد ذكرت هذا المثل على الشجاعة الفردية دليلا على الروح المعنوية وأثرها فى المعارك ،فقتال صاحبى اللواءين ، وقتال سعيد وعلى، وأخذ أبى دجانة سيف الرسول ليضرب به وجوه العدو حتى ينحنى . . كلها علامات معنويات عالية وظاهرات إيمان وبسالة .

وقد عجب الزبير بن العوام لأن الرسول لم يخصه بسيفه وأعطاه أبا دجانة،فاهتم الزبير بمتابعته ،فإذا به يخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه ، وقالت الأنصار أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، وهكذا كان يقال إذا عصب بها ، فخرج وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليـــلى ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقـــوم الدهر فى الكيّول أضرب بسيف الله والرســـول

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله .

وكان فى المشركين رجل لا يدع جريحاً من جرحى المسلمين إلا قتله ، فالتقى به أبو دجانة وهجم عليه وضربه ضربة فقتله .

ثم هجم على هند بنت عتبة — وكان يظنها رجلاً — وعندما هم بضربها ولولت ، فرفع عنها السيف ، وقال هذا الجندى النبيل الباسل :

أكرمت سيف رسول الله عن أن أضرب به امرأة .

وكان يحمل لواء المشركين طلحة ، فطلب المبارزة فخرج له على ابن أبي طالب فقتله فأخذ اللواء عثمان بن أبي طلحة فحمل عليه حمزة فقضى عليه ثم حمله أبو سعيد بن طلحة فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته فقتله ثم حمله مسانح بن طلحة فرماه عاصم بن ثابت فقتله ، ثم حمله الحارث بن طلحة فرماه عاصم فقتله ، ثم حمله كلاب بن طلحة فقتله الزبير ابن العوام ، وهكذا حتى قتل أصحاب اللواء وانكشف المشركون منهزمين لا يلوون على شيء وتبعهم المسلمون يعملون السلاح فيهم حيث شاءوا . .

وهنا وقعت حادثة هامة .

فإن هذا النصر الذى أحرزه المسلمون لم يحافظوا عليه ولم يعززوه . وربما لعب النصر برءوسهم فاستسهلوا المهمة وجروا وراء المغانم[1].

---

(١) لنابليون قول مشهور فى مثل هذا المقام : إن أعظم الأخطار يتهددنا فى لحظة النصر .

وأغرى هذا الغنم الرماة الذين أوصاهم الرسول بالثبات وأعطاهم مهمة الوقاية، فطلبوا من قائدهم عبيد الله بن جبير أن يأخذوا نصيبهم مما ترك العدو ، فقال :

لا أجاوز أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بغى .

أى أن هذه المغانم لا تلهينى عن الواجب الذى أناطته بى القيادة .

ولكنهم خالفوه ، وقال قائلهم :

لقد انهزم المشركون فما مقامنا هاهنا ؟

فانطلقوا يتبعون مكان الغنائم وتركوا الجبل .

وهكذا انفتحت الثغرة وضاع مبدأ الوقاية أو السلامة .

وهكذا انكسر « الضبط والربط » أى روح النظام العسكرى المنطوى على الطاعة وتنفيذ التعليمات .

ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله ، وهو الفارس اللماح الشجاع ، فانتهزها فرصة وكر بالخيل، فحمل على من بقى من الرماة وأداروا فيهم الضرب والقتل ، واستشهد قائد الرماة عبد الله بن جبير ، وانتقضت صفوف المسلمين واستدارت رماحهم وانتشرت الإشاعات عن قتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وضياع جيش المسلمين .

قال موسى بن عقبة :

« لما فقد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أى انقطعت أخباره وسط هوجة القتال قال أحدهم إن رسول الله قد قتل فارجعوا إلى قومكم — أى إلى قريش — يؤمنونكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم فإنهم داخلون البيت » .

وقال رجل منهم : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا .

وقال آخرون إن كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء :

أى أن المعركة المعنوية اشتد أوارها ، وجاءت اللحظة الحاسمة التى يتم فيها الفصل بناء على روح الجنود وإرادتهم وتصميمهم .

وظهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . .

ثبت وثبت معه أربعة عشر رجلا من أصحابه .

ووصل القتال إلى مركز القيادة ، وخلص العدو إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقذفه عتبة ابن أبي وقاص بالحجارة حتى أصيب وشجّ فى وجهه وشقت شفته ، ووقع فى حفرة فأخذ بيده على ابن أبي طالب وطلحة بن عبد الله حتى استوى قائماً .

ونزع أبو عبيدة بن الجراح الحلقات التى أصابت وجه رسول الله ، وترّس دونه أبو دجانة — أى جعل من نفسه درعاً تحمى الرسول فكان النبل يضرب فى ظهره .

وجاءت لحظة حرج بالغة الخطورة ، وكاد المشركون يصلون إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويفصلوا فى المعركة ، ولكن الجنود البواسل استمروا فى القتال فكان سعد بن أبي وقاص يرمى السهم فلا يخطىء ، وأحدث ظهور النبي (صلى الله عليه وسلم) أثره فى المسلمين فهللوا وكبروا واندمجوا فى القتال بروح معنوية عالية ، وبدأ ميزان المعركة

نحو الاعتدال ، وأراد المشركون إنهاء المعركة بضربة مفاجئة من الخلف إذ علت قريش الجبل فأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمنعهم، فانقض عليهم نفر من الرجال البسلاء حتى أهبطوهم .

وشعرت مكة بأن الهزيمة أطبقت عليها فركنت إلى الفرار .

وانتهت معركة أحد .

المعركة التى تأرجحت نتيجتها بين النصر والهزيمة ، والتى كشفت عن أهمية تطبيق مبدأ الوقاية ، ودلت على آن الهزيمة يمكن أن تتحول إلى انتصار نهائى بفضل الصبر والعزيمة والإصرار على القتال فى أسوأ الظروف حتى يتحقق النصر .

فهى — بحق — معركة القوى المعنوية .

الدروس المستفادة من معركة « أحد »

١ — انتصار القوى المعنوية على القوة العددية : فقد كان عدد المسلمين تسعمائة فى حين كان عدد المشركين ثلاثة آلاف .

كذلك استطاع المسلمون عند الهزيمة التى حاقت بهم فى لحظة النصر أن يصبروا على البلاء ويتحملوا المكاره ويعاودوا الهجوم بروح غلابة لا تقهر حتى واتاهم النصر بفضل روحهم المعنوية العالية وإرادتهم وإيثارهم الموت على الهزيمة .

٢ — فقدان مبدأ « الوقاية » : عرّض المسلمين للهزيمة ، فعندما

تخلت قوة الرماة عن واجبها فى مراقبة الفرسان ومضى أفرادها فى طلب الغنائم ، استطاع المشركون أن يضربوا ضربتهم وأن ينالوا من المسلمين .

٣ ــ النقاء العسكرى وأهميته فى معنويات الجيش ووحدة الرجال :

. . فقد فطن المسلمون إلى أن بين صفوفهم عدداً من المترددين والمستضعفين ودعاة الهزيمة فتخلوا عنهم وأبعدوهم عن صفوف الجيش ، كما أنهم رفضوا فكرة الاستعانة باليهود المشهورين بالنفاق المجبولين على الخيانة . وبذلك خلت الصفوف من المارقين والخونة والجبناء .

٤ ــ وحدة القيادة والجيش : فقد كان القائد يعيش بين جنوده كأحدهم ويشاورهم فى الأمر وينزل عند رأيهم ما دام صواباً وفيه خير . إن الديمقراطية فى الجيش تثبت الثقة وتشجع الابتكار وتنمى الشعور بالمسئولية وتقوى الروح المعنوية وتدعم وحدة القيادة والجيش .

٥ ــ الهجوم خير وسائل الدفاع :

كان المسلمون يواجهون رأيين . البقــاء فى المدينة انتظاراً لهجوم المشركين ، أو التقدم للقائهم فى مواضعهم . وكان التفضيل للرأى الآخر حيث أخذ المسلمون المبادأة وحرية الحركة وحققوا مبدأى الحشد والتعرض :

معـــركة الخنـــدق



كانت غزوة الخندق — على قدم العهد بها وبساطة رجالها وأسلحتها — نموذجاً للعملية الدفاعية التى تنتهى بالهجوم وتعزيز النجاح .

حدثت هذه المعركة فى شوال سنة خمس هجرية .

وقد مهد لها وأثار غبارها اليهود الذين دأبوا على مناوأة المسلمين وبث المكايد والفتن ونقض العهود ، وبخاصة بعد النصر المؤزر الذى أحرزه المسلمون فى وقعة بدر الكبرى .

وكانت خطة اليهود تقوم ظاهرياً على محالفة المسلمين خشية بأسهم ثم تملق المشركين وإثارتهم وحفزهم على القتال .

وقد تنبه الرسول (ص) لما برع فيه اليهود من حيل ومكايد وإثارات ، فلقنهم عدة دروس بليغة فى غزوة بنى قينقاع وبنى النضير ، ولم يكن يأمن شرهم أو يصدق توبتهم ، ولهذا رفض الاستعانة بهم فى غزوة أحد ، خشية المكيدة والخيانة .

نجح اليهود فى إثارة قريش وقبائل العرب وزينوا لهم أسباب الاجتماع والتحالف لقتال المسلمين ، وقال قائل من قريش ، على ما تروى المراجع : يا معشر يهود . إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه ، أفديننا خير أم دينه (يقصدون دين محمد) .

قال اليهود ، إمعاناً فى التملق والرياء : بل دينكم خير من دينه ،

وأنتم أولى بالحق منه[١] .

وبهذا نجحت الوقيعة واجتهد اليهود فى تجميع الأحزاب ونشر الدعوة إلى المغالاة والتشدد والانتقام حتى يستطيع التحالف المؤيد بقدرات اليهود أن يهزم المسلمين هزيمة حاسمة ونهائية .

وبدأت القبائل تحشد رجالها وخيلها وبعيرها وأموالها حتى تجمع عشرة آلاف محارب من قريش وغيرها من البقاع — مما أطلق على جمعهم اسم « الأحزاب » — وباستعراض هذه القوة المتحالفة يتضح أنها كانت أكبر حشد يتجه نحو المدينة فى أعظم أهبة وتعبئة للقيام بأشد غارة وأعنف قتال ، وكان تحالف « الأحزاب » يضم القوات التالية :

١ — من قريش : أربعة آلاف تحت لواء عثمان بن طلحة .

٢ — ثلثمائة من الفرسان وألف وخمسمائة بعير يقودهم أبو سفيان ابن حرب .

٣ — بنو سليم : سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس .

٤ — بنو أسد : ألفا ومائتين يقودهم طليحة بن خويلد .

---

(١) وفى ذلك نزلت الآية الكريمة : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً . (٥١—٥٥ النساء ٤).

٥ ــ فزازة : ألف يقودهم عيينة بن حصن .

٦ ــ أشجع : أربعمائة يقودهم مسعر بن رخيلة .

٧ ــ بنو مرة ــ أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف .

وهكذا تجمع عشرة آلاف من قريش والقبائل وتم تنظيمهم فى ثلاث فرق وكانت القيادة العامة لأبى سفيان .

وبلغ خبر هذا الاستعداد والحشد رسول الله (ص) فجمع رجاله وشاورهم فى الأمر فقال كل رأيه ، ثم استقر الرأى على إتخاذ خطة الدفاع عن المدينة وإنشاء خندق يحتمى فيه جنود المسلمين ويعوق تقدم العدو حتى تضعف قوته وتهن عزيمته .

وسرعان ما بدأت عملية حفر الخندق واشترك المجاهدون بهمة كبيرة فى حفره وتأمينه ،واقتضى ذلك جهداً كبيراً ونشاطاً عظيماً وكشف عن جدية وحماسة على حين ظهر بعض التخلف والخور لأن بعض ضعاف العزيمة وأنصار الدعة والراحة أخذوا يلتمسون المعاذير ويحاولون التسلل والهرب .

وفى ذلك نزلت الآية الكريمة ، وفيها وصف عملى لما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الجنود والقائد :

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم . لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضا قد قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره

أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم[1] .

وقد تم إعداد الخندق فى الوقت الملائم ووضع رسول الله رجاله فى الأماكن المناسبة وكانوا ثلاثة آلاف تحت لواءين : لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة واواء الأنصار بيد سعد ابن عبادة .

كذلك عنى الرسول بتطبيق مبدأ السلامة ، فجعل على حراسة المدينة ثلثمائة مجاهد ، وتقدمت قريش وحلفاؤها ففوجئوا بالخندق ، وقال قائلهم :

« والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها » .

ونظر رسول الله (ص) إلى قريش وحلفائها ، ففوجئ بالحشد الكبير

---

(١) الآيتان ٦٢ ، ٦٣ م النور ٢٤ المعنى : القائد والجنود فى هذا المجال على أمر جامع هو الاستعداد للقاء العدو وتحطيم هجومه فلا يجوز أن يبارح الجندى مكانه أو يتخلف عن عمله قبل أن يستأذن من القائد . فالذى يسلك هذا المسلك ويستأذن ثم يعود بعد قضاء حاجته هو الجندى المؤمن حقاً ، وللقائد أن يأذن أو لا يأذن على حسب مقتضيات الموقف .

وعلى الجندى أن يخاطب القائد بلهجة مؤدبة لا يرفع صوته عليه ولا يناديه كما ينادى واحداً من زملائه ، لأن للقيادة شأنها وجلالها .

وبالنسبة لرسول الله (ص) فى الآية نهى عن ذكر اسمه دون وصفه بالرسالة أو النبوة والصلاة والسلام عليه . أما الذين يخرجون خفية ومن غير إذن فانهم مارقون متخلفون ، يتسللون لواذاً أى (زوغاناً) ومآلهم العذاب وسوء المصير .

من المشاة والخيل وكثرة القبائل المتحالفة مع قريش .

وأخذ يعمل فكره ويضع تقديراً للموقف .

وفكر فى أن يتصل ببعض القبائل ويغريها بالتخلى عن التحالف وعقد صلح خاص ، ولم ينفرد بالرأى بل استشار كبار معاونيه ومنهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة صاحبا لواءى الأنصار والمهاجرين .

قالا : يا رسول الله أأمرا تحبه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به أم شيئاً تصنعه لنا .

قال صلى الله عليه وسلم : بل شىء أصنعه لكم . والله ما أصنع ذلك إلا أنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبوكم من كل جانب ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما .

قال سعد بن معاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه . وهم لا يطمعون أن يأكلوا تمرة إلا قرىً أو بيعاً ، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه . . نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

قال رسول الله (ص) : فأنت وذاك .

وأعطاه الصحيفة التى أعدت للتفاهم والمصالحة . فمحا ما فيها وقال : « ليجهدوا علينا » .

وهنا لابد من وقفة لتوضيح هذا الموقف الكبير ، من وجهة النظر الحربية .

إن « قائد جيش المسلمين » حين ألقى نظرة على الموقف بدأ يضع خطته على أساس الحقائق التالية :

أولاً : بالنسبة للعدو :

١ ــ العدو متفوق فى العدد والعدة والخيل والإبل .

٢ ــ العدو يتخذ خطة الهجوم ويملك حرية الحركة والمناورة .

٣ ــ التحالف ينبئ بشدة التصميم على خوض معركة كبيرة وإحراز نصر حاسم .

٤ ــ إنها معركة الثأر من بدر وأحد .

ثانياً : بالنسبة لجيش المسلمين :

١ ــ أقل عدداً وعدة .

٢ ــ يتخذ خطة الدفاع ، فلا يملك ميزة المبادأة وحرية العمل .

٣ ــ الروح المعنوية لدى المدافعين أقل منها عند المهاجمين ، وكلما طال أمد الحصار كان ذلك فى غير مصلحة المدافعين .

٤ ــ على الرغم من الإيمان الصادق الذى تشربت به نفوس المسلمين فإن هناك عدداً من القوم لم يكتمل دينهم ولم تكتمل عقيدتهم ولم يصدق جهادهم .

٥ ــ أن المعركة المرتقبة توشك أن تكون ذات أثر خطير ، ولهذا رأى «القائد» أن يستخدم الحيلة وأن يصرف بعض الحلفاء ــ والحرب خدعة ــ فأراد ذلك حتى يجنب قومه معركة عنيفة ومصيراً شديداً .

ولكن «القائد» لم ينفرد باتخاذ القرار وإنما دعا معاونيه ــ أى أركانى

حربه – يستشيرهم فيما عقد عليه العزم ، فراجعوه الرأى وخالفوه فى الاتجاه ولكن بأسلوب بلغ الغاية فى احترام القائد وتقديس حرية الرأى وأيضاً فإن « القائد » أرسى الديمقراطية فى جيشه وبلغ الغاية فى النزول على رأى الجماعة عندما استمع لهم واقتنع بحجتهم ووثق برجاحة فكرهم .

وأقبلت قريش وحلفاؤها يثيرون الغبار ويستعرضون القوة ويرسمون خطة الحصار ويعدون العدة للثأر والانتصار .

وتقدمت منهم قوة تختبر الخندق وتحاول اقتحامه فى موضع ضيق فأسرعت إلى الموضع قوة باسلة يقودها على بن أبى طالب فأخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم وأعملوا فيهم الضرب حتى ردوهم مثخنين بجراح.

ومن طرائف مشاهد معركة الخندق ، أنه لما بدأت المبارزات الفردية – كما كانت عادة استهلال القتال – ظهر عمرو بن عبدود – وكان قد أصيب بجراح فى بدر فلم يشهد وقعة أحد – فسأل هل من مبارز ، وكان بادى القوة راغباً فى الانتقام والبطش .

فتقدم على بن أبى طالب وقال : أنا له يا نبى الله .

قال رسول الله (ص) : اجلس إنه عمرو .

ثم كرر عمرو النداء وجعل يؤنب المسلمين ويقول : أين جنتكم التى تزعمون أن من قُتل منكم دخلها ، أفلا تبرزون لى رجلا .

فقام على وقال : أنا يا رسول الله .

فقال : اجلس إنه عمرو .

ثم نادى الثالثة وقال شعراً :

ولقد بححت من النــداء بجمعــكم هل من مبارز
ووقفت إذ جبن المشجـــع وقفــة الرجـــل المناجز
وكـــذاك إنى لم أزل متسرعاً قبـــل الهزائـــز
إن الشجاعـــة فى الفـــتى والجـــود من خـــير الغرائز.

فقام علىّ فقال أنا له يارسول الله . فقال إنه عمرو ، فقال وإن كان عمراً . فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومشى على إلى عمرو وهو يردد شعراً :

لا تعجلن فقـــد أتـــاك مجيب صوتك غير عاجز
ذو نية وبصيرة والصدق منجى كل فائز
إنى لأرجـــو أن أقـــيم عليـــك نائحة الجنائز
من ضربة نجـــلاء يبقى ذكرها عنـــد الهزاهز

فقال عمرو : من أنت ؟ قال : أنا على

قال : ابن عبد مناف ؟

قال : أنا على بن أبى طالب

قال : غيرك يا ابن أخى من أعمامك من هو أسن منك ، فإنى أكره أن أهريق دمك .

فقال على : ولكنى والله ما أكره أن أهريق دمك .

فأبدى عمرو غضبه ونزل وسل سيفه كأنه شعلة نار ، ثم أقبل نحو على مكشراً عن أنيابه ودار بينهما قتال فانتصر على وقتل عمراً .

وفى هذا اللقاء تتضح أهمية الإيمان وفضل الشجاعة الأدبية ، فلا العدد

ولا السلاح تغنى عن الإيمان والبسالة والقوى المعنوية للأفراد وللجماعات وللجيوش والشعوب .

أين إذن تكمن القوة الحقيقية ؟

لم يختلف القادة والمراقبون والمؤرخون في الماضي والحاضر فى أن القوة الحقيقية تكمن فى النفوس ، وأن أهم أسلحة الحرب : الرجال ذوو البسالة .

وكيف تكسب المعارك بغير شجاعة الرجال وتصميمهم على الفوز؟

بل كيف لا تكسب المعارك إذا خاض غمارها الرجال وهم فى ثقة ورضا وتصميم على النصر أو الشهادة ؟!

انظر إلى تصميم الجندى فى دعاء سعد بن معاذ :

« اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقنى لها ، فإنه لا قوم أحب إلى أن أجاهد من قوم آذوا رسولك وأخرجوه وكذبوه . اللهم إن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعل لى شهادة ، ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة » .

إن الشهادة والروح المعنوية وتفضيل الموت على العار هى جوهر الحرب ونواة النصر .

فى هذه المعركة ـ الخندق ـ كان سلاح العرب الإيمان ، دون أن يتخلفوا عن باقى أسلحة الحرب وفنونها ، فإذا كانوا أقل عدداً من خصومهم أو لم تكن لهم قوات من الفرسان وكثرة من الأموال فقد اتخذوا للحرب عدتها وأقاموا الخندق فجعلوه بينهم وبين أعدائهم ، وهكذا سقط فى يد

قريش التي جربت دفع قوات من الفرسان فلم تستطع إلى اجتياز الخندق سبيلا وأسفرت الهجمات التي حدثت عن إخفاق وعجز ، ولم يعد لديهم من أسلحة القتال فى هذا الموضع سوى مواصلة رمى النبال ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم .

وأيقن أبو سفيان وقادة ألويته أنهم يقيمون أمام الخندق دون جدوى وبلا أمل ، واشتد عليهم الشتاء ببرده وهوائه ، وأنذر بمطره واشتداد رياحه وهم فى العراء ، وكان المسلمون يحتمون بالخندق وبمنازلهم وراءه فى مكة وفى غطفان ويستطيعون البقاء طويلاً دون عناء كثير .

وهكذا وضح أن النصر السريع المرتجى قد أضاعته مكيدة الخندق وأن المعركة التى قدرت لها قريش يوماً أو بعض يوم قد طالت وأن ظروف المكان والجو غير ملائمة للبقاء .

وبدأت روح التردد والهزيمة تفشوا فى نفوس الحلفاء بعد أن طال بهم أمد الحصار واشتدت عليهم الريح فلم يستطيعوا صبراً .

وظهر شبح الهزيمة وضياع كل جهد بذلته قريش وخاصة تجميع الأحزاب ، فإذا أخفق هذا الحشد الكبير فإنها النهاية ، ولا أمل بعد ذلك فى ثأر أو انتقام ، وإنما هى الهزيمة والتفرق والضياع .

وقد قدّر اليهود سوء مآلهم إذا انسحبت الأحزاب ، وفكر حييّ ابن أخطب فى حيلة يؤجل بها الانسحاب ويحفظ معنويات الحلفاء حتى يضرب بآخر سهم فى جعبته ، وهو إقناع بنى قريظة بنقض العهد والانصراف عن معاونة المسلمين والانضمام إلى قريش وحلفائها ، وبذلك

تنقطع المؤن عن المسلمين وينفتح الطريق إلى يثرب .

والتقى حيى بن أخطب وكعب بن أسعد — صاحب عقد بنى قريظة — فتداولا فى الأمر، الأول بحيلته وإغرائه الآخر بيهوديته وطبيعته الخيانة والغدر، فنقض اليهود العهد، وانتقلوا خفافاً من جانب المسلمين إلى جانب المشركين فى أشد أوقات المعركة بل فى لحظة تقرير مصيرها[1].

وكان لهذا الانقلاب أثره الشديد فى المعسكرين .

فالأحزاب استعادت معنوياتها وتغيرت نظراتها من اليأس إلى الأمل .

وأما المسلمون فقد وقع عليهم الخبر موقعاً سيئاً . وبخاصة أن المعركة كانت قد أوشكت أن تنتهى بارتداد الأحزاب .

واشتد القتال عشرة أيام مريرة .

وأقبل الأعداء من كل جانب .

ونزلت الآية الكريمة :

« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنا لك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً.

وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لا مقام فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً[2] » .

---

(١) على أثر علم الرسول (ص) بهذا انقلاب أرسل بعثة لتقصى الأمر والتقوا هم وكعب فإذا به يفاجئهم بقوله : من رسول الله . . لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد ! ؟

(٢) سورة الأحزاب — الآيات من ١٠ — ١٣ .

هكذا حدث التحول فى الموقف ومال ميزان القوى ، بسبب الخيانة والغدر ، فى أثناء المعركة ، إذ انتقلت من جانب المسلمين إلى جانب المشركين فئة — كانت فى أقل القليل يؤمن شرها ولكنها كانت تحمى مدخل يثرب وتؤمّن وصول المؤن — فلا غرو إذا اهتزت صفوف المشركين فرحاً وأملا وتحركت لاستعراض قوتها وخيلائها وتمارس أعمال التهديد والعدوان .

أما صفوف المسلمين — فبالرغم من النكسة — فقد ظلت على ثباتها وتصميمها مهما كانت المكاره المتوقعة والويلات المنتظرة

ولم ينجح المشركون فى محاولاتهم اقتحام الخندق ولا إرهاب المسلمين ، ثم هبت عاصفة شديدة بليل وهطل المطر غزيراً فانهارت خيام الأحزاب واهتزت نفوسهم ، وخالطهم الرعب . ولم يستطيعوا على هذا المقام صبراً ولا ثباتاً : واتجه تفكيرهم إلى التحلل من التحالف والفرار من الردى .

وكان فى مقدمة المفارقين طليحة بن خويلد حامل لواء بنى أسد فنادى عشيرته :

« إن محمداً قد بدأكم بشر ، فالنجاة النجاة » .

ووقع اليأس فى قلب أبى سفيان فقال لمن معه :

« يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . ولقد هلك الكراع — أى الخيل — والخف — أى الجمل — وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم ما نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، ما يستمسك لنا بناء ولا تثبت لنا قدر ولا تقوم لنا نار . فارتحلوا فإنى مرتحل » .

أى أن قريشاً وحلفاءها لم يثتبوا فى وجه العاصفة ولم يستعينوا بالصبر، وإنما طارت نفوسهم شعاعاً فى ساعات ، وهم الذين كانوا يتظاهرون بالقوة ويتأهبون للغزو ويحلمون بالقضاء على خصومهم . وبذلك انهارت عزائمهم وقضوا على أنفسهم بالهزيمة قبل اللقاء و بالفرار قبل بدء المعركة .

وهكذا انتهت معركة الخندق دون قتال يذكر فكانت معركة الصبر والثبات وأيضاً معركة الحيلة كما أن الطبيعة كان لها دور كبير فى هزيمة المشركين .

ولكن انصراف الأحزاب عن الخندق ــ وإن كان هزيمة لقريش ــ فإنه لم يكن انتصاراً كاملاً للمسلمين ، إذ عادت الجماعات إلى دورها ــ وبخاصة بنى قريظة ــ دون أن تحاسب على غرورها وإثمها ، فكان لابد من متابعة الانسحاب والقضاء على بنى قريظة .

هذه العملية هى ما يطلق عليها فى الحرب الحديثة « تعزيز النجاح » أى متابعة الخصوم المرتدين وضربهم حتى لا تقوم لهم قائمة وحتى تكون لهم عبرة إذا فكروا فى المعاودة .

كما أن هذه العملية تعتبر تنفيذاً عمليًّا للمبدأ القائل بأن الدفاع يجب أن ينتهى إلى الهجوم ، إذ لا يحقق الدفاع وحده غاية المعركة ، وإنما لابد فى المعركة الدفاعية الناجحة من الانتقال إلى الهجوم[1] .

---

(١) فى العرف العسكرى العصرى أن أية عملية دفاعية لا يتحقق الهدف منها إلا إذا تبعها هجوم ــ مهما تكبد الخصوم من خسائر فى الأنفس والأسلحة والمعنويات ــ ولكن النصر رهن بهجوم يفصل فى المعركة و يقضي على إرادة العدو =

خف المسلمون إلى المعركة الجديدة ، وانتقلوا من الدفاع إلى الهجوم، ومن المكوث وراء الخندق إلى مواجهة المخابئ والتحصينات التى أنشأها وأقام فيها اليهود وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله .

وقد ظل الحصار خمساً وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا تراشق بالنبل والحجارة،وشدد المسلمون على خصومهم ولم يدعوا لهم فرصة للخروج حتى جهدهم الحصار ودخل قلوبهم الرعب .

وطلب اليهود شروط التسليم ، ونزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزلت فى الخندق وبنى قريظة :

« يأيها الذين آمنو أذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنا لك أبتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم

= ويجبره على التسليم .

وفى وقعة الخندق باءت محاولات المشركين بالإخفاق وتعرضوا للبقاء فى العراء أياماً وليالى بين قسوة ظروف الحرب ، واشتداد العواصف مما اضطرهم إلى الانصراف ، ولكن لم تنزل بهم الهزيمة فكان لا بد لدحرهم من عمليات هجومية يبادر إليها المسلمون .

ولهذا قال رسول الله (ص) بعد الخندق : لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم .

يأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً . ولو دخلت عايهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً . قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك يؤمنوا فاحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً . يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا . لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً . ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزاً وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقاً

تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شئ قديراً »[1] .

وهكذا تم إخضاع بنى قريظة وانهارت معنويات قريش وفقدت بأسها وخيلاءها وسكنت أصوات المدعين والمنافقين ، واستتب الأمر لرسول الله (ص) وسجل تاريخ الجهاد العربى لمعركة الخندق أهميتها الحربية ونتائجها الباهرة فى تقويض دعائم قريش ودحر اليهود وتفرقة الأحزاب وانتقال المسلمين من مرحلة الدفاع عن النفس إلى مرحلة الهجوم الوقائى والتعرض الذى لا غنى عنه لحماية المعتقد وتأمين السلم .

---

(١) الآيات : ١٩ - ٢٦ م الأحزاب ٣٣ ، قال تعالى : قل لن ينفعكم الفرار . وهذا درس يصح لكل زمان ولكل قوم . فهل الفرار من الجهاد عاصم من أمر الله ، وهل الموت يهبط فى الحرب فقط ؟ وماذا ينفع الفرار غير قتل الروح وإهدار الكرامة وتمتع بالحياة إلى حين ؟ !

أما رسول الله (ص) القائد فكان نموذجاً لجنوده ومثالا للمجاهدين ، واشترك بيده فى حفر الخندق وعاش عيشة رجاله وتعرض للمكروه معهم ، وكان لا ينفرد برأيه ، بل كان الأمر شورى بينهم. وكان المؤمنون حقاً يجاهدون ويصبرون ويصدقون فى اللقاء ، فمنهم من استشهد ومنهم من شهد رفع الغمة وقدوم النصر . وقد انفضت الحرب بغير معركة حاسمة لما حدث فى صفوف المشركين من فرقة وما ألم بهم من ريح صرصر زلزلت أقدامهم وما وقع فى قلوبهم من رعب . وكان للمؤمنين النصر والغلبة وكانت لهم ديار الكفار وأموالهم بإذن الله لقاء إيمانهم وجهادهم فى الله حق الجهاد .

الدروس المستفادة من وقعة الخندق

١ ــ لا تكون العملية الدفاعية خطة كاملة إلا إذا تبعها هجوم يحقق هزيمة العدو تحطيم إرادته .

ولهذا تحركت قوات المسلمين فور انسحاب الأحزاب وحاصرت بنى قريظة حتى أجبرتها على التسليم .

٢ ــ فقدان المسلمين لمبدأ « السلامة » : إذ اعتمدوا على بنى قريظة ، وفى ساعة الحسم ، اتضحت خيانتهم وكادت المعركة تنقلب وبالاً على المسلمين . فالحذر والحيطة ضروريان لابد من إلتزامهما من أجل سلامة القوات .

٣ ــ استخدام مبدأ الحشد : حيث قرر رسول الله أن يتخذ خطة الدفاع عن المدينة وحفر الخندق ووضع قواته بين الخندق والمدينة فكانت له المبادأة وحرية العمل وكانت قريش تتوقع أن يكون اللقاء فى أحد .

٤ ــ استخدام مبدأ المفاجأة : وذلك بحفر الخندق ــ وكان أمراً جديداً فى ذلك الزمان ــ ففوجئ به المشركون وقال قائلهم :

« والله إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها » .

فكانت المفاجأة فى المكان وفى الخطة على غير ما كان العدو ينتظر .

٥ ـ الديمقراطية فى جيش المسلمين : إذ كان الرسول القائد يشاور رجاله فى كل أمر ويأخذ بالرأى الذى تبديه أو توافق عليه الأغلبية ، كما كان الرسول القائد أسوة طيبة ومثلاً أعلى لرجاله . كان بينهم كأحدهم وقد عمل فى حفر الخندق بيديه فكان يرفع التراب ويدعو إلى الصبر ومضاعفة الجهد .

إن الجنود يتأثرون بالقائد ويحذون حذوه ، وكيفما يكن القائد يكن الجنود ، ولهذا فإن التوجيهات الحديثة للقادة هى أن القيادة تحتم تقديم المثل الطيب قبل أية فضيلة أخرى[1] وأن يشارك القائد جنوده كل ظروف المعركة .

---

(١) للمارشال وليم سليم قول مأثور :

« الضباط وجدوا ليقودوا الجنود . وإنى أناشدكم بصفتكم ضباطاً ألا تأكلوا أو تشربوا أو تدخنوا أو تجلسوا . . أو حتى تستندوا إلى شجرة قبل أن تتيقنوا أن ذلك متاح لجنودكم » .

معركة القادسيّة



في خاتمة حياة رسول الله (ص) كانت الدعوة الإسلامية قد انتشرت وطابت لها نفوس العرب ، وكان جيش الجهاد الإسلامى قد انتصر على مناوئى وخصوم الدعوة ، واستطاع أن يهيمن على شبه الجزيرة العربية ، حتى أستظلت برايته واحتمت بقوته ، ثم اختبره منطقة لحدود وألزامها الطاعة والجزية ثم التقى — عبر الحدود — بأعظم جيوش ذلك الزمان — وهو جيش الروم — فاكتسب من غزواته ومعاركه خبرة ودراية ، كما تطورت تشكيلاته وتنظيماته وأسلحته ، ومارس شتى التحركات والفنون الحربية المتفوقة .

وكان آخر عمل عسكرى تولاه القائد (محمد صلى الله عليه وسلم) هو تعبئة الجيش لمواجهة تجمعات الروم على الحدود وقيادة هذا التحرك الشاق إلى « تبوك » ، وما كان من انسحاب الروم إلى داخل بلادهم واحتمائهم بحصونهم ، ثم كانت العودة إلى المدينة دون أن يزول خطر ملاقاة الروم ، فلما فرغ من حجة الوداع أمر بتجهيز جيش كبير جعل فيه صحابته وأمّر عليه أسامة بن الشهيد زيد بن حارثة ، وهو بعد شاب فى العشرين* .

* وهكذا بدأ التفكير مبكراً فى تقلد الشبان قيادة الجيوش ، وفى مدرسة محمد القائد تخرج عدد من الشبان النابغين الذين لمعت مواهبهم وأنجبت قيادتهم انتصارات باهرة ومبادئ حربية خالدة .

وكانت تعليمات محمد القائد إلى أمير جنده أسامة أن "يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم – من أرض فلسطين على مقربة من « قوته » حيث استشهد أبوه – وأن يفاجئ الروم فى « عماية الصبح » فيقضى فيهم أشد قضاء ، وأن يتم ذلك خفية ودراكاً حتى لا تسبقه أنباؤه إلى أعدائه ، وأن ينهى جولته معه بأسرع ما يستطاع ويعجل بالعودة .

هذه التعليمات أقرب ما تكون إلى أمر عمليات حرب خاطفة : التحرك خفية والضرب مفأجاة والعودة العاجلة . . تماماً على النحو الذى كان يتفاخر قيصر حين قال : « ذهبت وانتصرت ورجعت » .

حال دون تحرك جيش أسامة فى اللحظة الأخيرة مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم والجيش على أتم أهبة وأكمل استعداد ، وثار حوار : هل يتحرك الجيش أو ينتظر . . . إلى جانب الحوار المثار عن وضع أسامة « الشاب » على رأس الجيش وفيه عظماء المهاجرين والأنصار . . ولكن خفت الحوار وساد الصمت فى ساعة من ساعات التاريخ الرهيبة حتى انتقل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفيق الأعلى .

ولما ولى الخلافة الصديق أبو بكر أصدر لأمره لأسامة بالتحرك لتنفيذ عمليات ردع الروم على حدود الشام تنفيذاً لفكرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحقيقاً لأمن الحدود واستمراراً فى نشر دعوة الإسلام ، وقد تحرك الجيش بقيادة أسامة الذى كان عند حسن ظن الرسول القائد فقام بعملية جريئة ، فأغار على البلقاء ودحر خصومه وعاد مرفوع اللواء الذى عقد له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بيده .

وقد أعقب وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ارتداد نفر من ضعاف الإيمان والمنافقين والمترددين ، فقاد أبو بكر معارك الردة حتى قهر المرتدين وعاد لمتابعة رسالته فى نشر الدعوة وتوجيه جيش الجهاد إلى الأقطار المجاورة ، وفيها جماعات وقبائل تدين بالسيادة للفرس والروم .

كانت فارس واحدة من « إمبراطوريتين » هما صاحبتا الشأن والحضارة والقوة فى ذلك الزمان ، الأخرى كانت بيزنطية — دولة الروم — كلتا الدولتين نشرت نفوذها وسيرت جيوشها وأرست أعلامها على بقاع شاسعة وبلدان عدة وحدث بين القوتين عدة مصادمات على مدى سبعة قرون متتابعة ، وقد خضعت العراق — دولة لخم — للفرس ، وخضعت الشام — دولة غسان — لعروم وحدثت معارك حربية ضارية بين الروم والفرس كان أشدها انتصار الفرس فى سنة ٦١٥ م ودخولهم القدس وفى أثرهم الدمار والخراب والدم المراق ، ثم تحولهم بعد ذلك إلى فتح مصر وإزالة سلطان الروم عنها* .

ثم وقع صدام آخر فى سنة ٦٢٨ م وانتصر الروم وأحاطوا بعاصمة الفرس « المدائن » حتى جلت قوات فارس عن الشام ومصر ودخل هرقل بيت المقدس .

ولم يكن انتصار الروم يعنى أنهم أحرزوا الغاية وأخذوا بميزان القوة

---

* فى ذلك نزلت الآية الكريمة « آلم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

كما لم تكن هزيمة الفرس تعنى الضياع ،وإنما المعنى الواقعى لمعاركتهما الأخيرة أن كلتا الدولتين قد هبطت من عليائها وشاع الضعف والخور فى كيانها وبدأت شمسها فى المغيب ، عندما أذن الله بثورة الإسلام وانتفاضة العرب .

كان الاتجاه السابق فى التحرك العربى هو البدء بالروم ، حيث جرت لقاءات فى مؤته وتبوك والبلقاء ، ولكن حدث تحول فى الموقف أدى إلى تحويل التفكير من البدء بالشام إلى التحرك نحو العراق حيث كانت دولة الفرس تنشر سيطرتها وتمارس سلطانها .

. . ذلك أن المثنى بن حارثة الشيبانى من فرسان بنى بكر أهل البحرين جمع جموع القبائل العربية حتى دانت له منطقة الخليج :

وأرسل إلى الخليفة أن يأذن له بالإمارة على المنطقة حفاظاً على ما بلغه من سيطرة عربية وحتى يستطيع أن ينشر الدعوة ويرسى قواعد الحق والعدالة وأن يقف فى وجه الفرس .

ونظر الخليفة الصديق فى الموقف نظرة المرؤوس عن نشر الدعوة والقائد الذى عاش فى كنف الرسول وقيادته ، وأخذ يضع خطته لنشر الدعوة فى العراق وتنظيم الجيش والقيادة الكفيلين بإحراز النصر وبلوغ الغاية :

ولم يكن جيش المثنى بن حارثة قادراً على هذه المهمة الجليلة الصعبة فى مواجهة جيش الفرس الجرار وقوة فارس المسيطرة المتسلطنة ، فلم يكن به من عدد كبير ، ولم يكن به من قائد عبقرى ، ولهذا صدرت أوامر الخليفة بتحرك عشرة آلاف مجاهد للانضمام إلى جيش المثنى الذى يبلغ

ثمانية آلاف وأن تكون القيادة العليا لسيف خالد بن الوليد .

عبر جيش الجهاد الإسلامى حدود العراق إلى سهل بابل أو منطقة السواد حيث كان الحشد الفارسى بقيادة هرمز فى الانتظار ، ودارت معركة مصادمة سريعة ارتد بعدها جيش الفرس إلى منطقة الجسر الأعظم فى الفرات ، وهو مكان مدينة البصرة .

ثم حدث صدام آخر سريع عند « المذار » — قريباً من التقاء دجلة بالفرات — حيث كانت الإمدادات المرسلة بقيادة الأمير « قادن » تنضم إلى جيش « هرمز » واستطاع خالد بن الوليد بعمليات سريعة متقنة أن يبدد شمل الفرس وأجبرهم على ترك المكان .

ثم انتقل القتال إلى « الولجة » حيث احتشدت جماعات من رجال القبائل تقودهم وتؤيدهم قوات عسكرية فارسية تحت إمرة القائد جاذويه الذى أدار معركة حامية لم يكتب له فيها الفوز ولم يتسن لقواته ولقبائل الأعراب المتعارضة معها طول المقاومة فكانت معركة الولجة هزيمة جديدة فى سجل الهزائم التى حلت بالفرس على يد العرب ، وهم يطوون بساط فارس .

وكان اللقاء التالى عند « أليس » حيث ألقى خالد بن الوليد بقواته فى معركة هجومية على دفاعات الفرس التى لاذ بها وقاتل عنها قوات فارسية يقودها « جابان » ويؤازرها أهل القبائل المندفعون فى قتال العرب تحت الرياسة الفارسية وبتأثير ما كان للفرس من قوة وضراوة ، ولكن العمليات الدفاعية باءت بالخذلان وتراجعت قوات فارس منهزمة متداعية وتاركة

العديد من الأسرى والكثير من الغنائم .

وظهرت « الحيرة » عاصمة « العراق » بأسوارها ودفاعاتها القديمة ، وتقدم خالد فأحاط بها وشدد عليها الحصار ودعا أهلها إلى الإسلام أو الجزية فأبت وتمنعت ولكن لم يطل بهـا الوقت ولم تثبت على المقاومة فهوت دفاعاتها وهبطت معنويات أهلها وجندها فقبلت التفاوض وارتضت دفع الجزية ودخل خالد الحيرة ، فكانت قاعدة جيشه ومقر رياسته .

وقضى خالد وجيشه نحو عام فى الحيرة يدبرون الأمر ويضعون الخطط وينتظرون تعليمات الخليفة دون أن تغيب عن فطانته محاولات التمرد أو تحركات الجيش الفارسى ، فسارع إلى ملاقاة الكتائب التى بدت تجمعاتها ومناوراتها عند الأنبار وعين التمر حيث كان الجنود والأهالى يحتمون بالأسوار ويقيمون الخنادق فلما كان اللقاء عبر المسلمون ما كان أمامهم من خنادق واجتازوا ما صادفهم من أسوار حتى دخلوا المدينتين فى أيام قليلة .

بيد أن هذه العمليات ــ على أهميتها ــ والانتصارات التى أحرزها العرب ــ على تتابعها ــ لم تكن أكثر من خطوات حاسمة على الطريق . أما الغرض فكان الجيش الفارسى الكبير وأما الغاية فكانت حاضرة الفرس : المدائن .

وكان أمام المسلمين هدف آخر لا يكمل النصر دون إحرازه ذلك أن الحصار الذى فرضه العرب على دومة الجندل لم يأت بنتيجة ، وبذلك بقى فى منطقة الحدود مركز حيوى يشق عصا الطاعة ويمثل تهديداً للجيش

المتقدم سواء إلى العراق أو الشام، هذا فضلا عن الحاجة إلى تأمين الحدود ضد أية غارة فارسية أو رومية مرتقبة .

ولم يكن طبيعياً والموقف على ما قدمنا أن يستمر خالد بن الوليد فى شق طريقه إلى معركة كبرى فاصلة فى العراق على حين تقع مقاومة فى منطقة الحدود الأمر الذى دعا الخليفة إلى طلب التريث من خالد وطلب التشدد من عياض، فلما طال به المكث وأدرك عجز عياض فى القضاء على مقاومة دومة الجندل أرسل إلى خالد لكى يقوم بهذه المهمة فيقطع الفيافى والقفار بجانب من جيشه المنتصر ويقضى على تلك « البندقة الصعبة الكسر » وهو ما توصف به القلعة المنيعة والمدينة المدافعة .

ومرق خالد بجيشه يقطع ثلثمائة ميل فى صحراء مقفرة وظروف جوية صعبة ، فانتقل من ساحة إلى ساحة ، وترك معركة ذات طبيعة إلى معركة ذات طبيعة مغايرة ، وأنجد الحليف حليفه وتعاونا فى خطة مشتركة تولى بها خالد دحر القوات المعادية وقهر الدفاعات واقتحام الحصن وانتزاع الشوكة التى كانت موجهة إلى جانب الجيوش العربية .

وعاد خالد ، بعد هذا النصر السريع ، إلى مقر قيادته فى الحيرة، وما كاد يعاود النظر فى الموقف والتفكير فى الخطوة التالية حتى جاءه أمر الخليفة بوقف أى حركات جديدة ضد الفرس والاكتفاء بنصف الجيش للحفاظ على المكاسب الإقليمية والتحرك بنصف الجيش إلى مهمة أخرى عاجلة .

. . لقد كان خالد أسرع رحالة فى زمانه .

وكان الموقف يقتضى تحركاً سريعاً .

ولهذا ترك خالد قرابة نصف الجيش فى العراق تحت قيادة المثنى بن حارثة ، وبارح هو هذا الميدان متجهاً إلى اليرموك حيث كان الاشتباك وشيكاً وعلى جانب كبير من الخطورة بين المسلمين والروم .

وهكذا واجه جيش الجهاد الإسلامى أعظم قوتين فى ذلك الزمان — الروم والفرس — فى آن واحد .

وبدأ التاريخ يسجل فصلا من فصوله العظمى .

وفى مقدمات هذا الفصل نجد تغييرات فى الحرب والحكم بالنسبة لميدان العراق .

فى الحرب : بارح الميدان نصف الجيش العربى بقيادة خالد سعياً إلى تأييد الحشد للقاء الروم ، وبقى نصف الجيش بقيادة المثنى بن حارثة فى انتظار وصول إمداد يعضده ويشد أزر قواته حتى تستطيع أن تتابع انتصاراتها وتكمل مهمتها .

وفى الحكم : مات الخليفة الصديق ، ومات كسرى أرشير وتولى خلافة المسلمين عمر بن الخطاب وتولت عرش فارس الملكة بوران .

وقد بعث عمر بن الخطاب مدداً إلى العراق ، وجعل قيادة الجيش لأبى عبيد بن مسعود ، والتفتت بوران أيضاً إلى العراق وعقدت القيادة العامة للقائد المشهور « رستم » وقيادة قوات العراق للقائد « جاذويه » .

ولا ريب أن « الميدان » قد تأثر بهذه الأحداث الحربية والسياسية .

وبدأت العمليات بلقاءات جانبية ولكن حاسمة فى « النمارق » ثم

فى كسكر حيث انتصر الجيش العربى ودان له سواد العراق .

وعلى جانبى الفرات وقف الحشد الفارسى فى ناحية والحشد العربى فى الناحية المقابلة ،وبدأ استعداد الجانبين لمعركة الفصل وساعة الحسم وبينهما مانع مائى له أثر كبير فى القتال المرتقب .

ويبدو أنه قياساً على النجاح السابق فى كل لقاء بين العرب والفرس ، فقد تسارع أبو عبيد بن مسعود فى التحرك دون تقدير لإمكان استخدام المانع المائى فى الدفاع ،فاختار أن يتقدم وأن يعبر الفرات وأن يقطع الجسر بعد العبور حتى لا يتبقى أمام الجيش العربى سوى القتال والنصر أو الموت .

وفى الجانب الآخر كان جاذويه يقدر الموقف تقدير الخبير المدرب فاتخذ خطة الدفاع مستفيداً من المانع المائى ومستخدماً الفيلة كعامل مفاجئ فى الحرب وكان له ما أراد فقد شق المانع على العرب فكبدهم الكثير من المشقة وجاست الفيلة بين صفوفهم فأحدثت ذعراً واشتد أوار المعركة واستشهد القائد العربى تحت أقدام الفيلة ثم استشهد بعده قواده ، وخيمت الهزيمة مادياً ومعنوياً فارتد العرب ولكن «البحر» وراءهم والعدو أمامهم فانقلبت الهزيمة إلى كارثة ،ولكن المثنى بن حارثة تدارك الأمر فأبلى وجنوده فى الدفاع وصدوا هجوم الفرس وأوقفوا اندفاعهم حتى أعيد بناء المعبر وتمكن باقى الجيش من الانسحاب فى ستار من قتال المؤخرة الذى قام به المثنى بجسارة وبراعة .

وكلفت هذه المعركة العرب أربعة آلاف قتيل،أى ما يربو على نصف الجيش الذى تشتت شمله وتعرض للضياع ،لولا أن الفرس وقفوا عند ذلك

الحد دون استثمار لنجاحهم وبلا مطاردة ولا تعقيب، مما أعطى العرب فرصة النجاة من الكارثة والثبات بعد الانهيار ، واستطاع القائد المدرب النابه المثنى بن حارثة أن يعيد تنظيم الجيش وتقدير الموقف وطلب الإمداد وحشد قواته فى « البويب » .

وفى « البويب » جرت معركة أخرى شديدة الشبه بمعركة «الجسر» مع اختلاف الخطط ، ففى الأول بدأ العرب باقتحام المانع المائى فأفاد الفرس فى عملية دفاعية انتهت بالهجوم ، وفى الثانية بدأ الفرس باقتحام المانع المائى فتلقاهم العرب بالضرب والرمى حتى كانت لهم الغلبة وانحدروا إلى المعبر فقوضوه وبذلك أصبح الفرس بين الماء والأعداء وحدث لهم من المكارة والهزائم ما لم يحدث للعرب .

وهكذا الحرب — كما قال عمر بن الخطاب — « لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكيف » .

انتصر العرب فى معركة « البويب » وعززوا انتصارهم بمطاردة فلول الفرس والضغط على اتجاهات رجعتهم ، فكانت هزيمة الفرس ماحقة وانتصار العرب مبيناً مما حقق لهم السيطرة على بلاد السواد وبين النهرين .

وقد حركت هذه المعركة نفوس الفرس قيادة وجيشاً وشعباً ، فأدركوا أن ما حل بهم من هزائم كان نتيجة الخلاف والفرقة وعدم النظام ، وساعد على إعادة التنظيم اعتلاء يزدجرد العرش واستتباب قيادة الجيش وعقد العزم على رد الجيش العربى ومسح آثار الهزائم السابقة .

جاءت أخبار هذه الاستعدادات والتصميمات والخطط إلى معسكر

العرب، فنقلها القائد المثنى إلى الخليفة عمر الذى أنعم النظر فى الموقف ورأى توزع قواته بين العراق والشام وأدرك ما يستعد له الفرس ، وأعطى أوامر بسحب القوات العربية وإخلاء الأراضى المحتلة والعودة إلى الحدود، لأن تقدير الموقف أثبت خطورة بقاء قوة محدودة على مواصلات بعيدة وفى مواجهة جيوش عظمى لدولة تتحفز للانتقام وتستعد لضربة حاسمة .

وهكذا ثبت مبكراً أن الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأرض ليس انتصاراً واحتلال جانب من أرض العدو ليس كسباً، وإنما النصر رهن بتدمير القوات الرئيسية وقهر إرادة الشعب ، كما ثبت أن العرب كانوا بعيدى النظر فى شئون الحرب، فقد أدركوا خطورة امتداد المواصلات وصعوبة الأمداد والتموين وخطأ القتال فى جبهتين قويتين .

سحب الخليفة عمر قواته من العراق — برغم انتصاراتها المتتابعة — وكلفها العودة إلى مناطق الحدود — برغم ما استولت عليه من مساحات واسعة وعمل على أن تبلغ من الاستعداد ما يؤهلها للمهمة التاريخية التى نيطت بها وهى غزو دولة الفرس .

وبدأ الحشد ينتظم فى « صرار » التى أصبحت قاعدة التجمع ومركز الاستعداد ، وجاء عمر إلى قاعدة الجيوش يحف بها أهل الرأى والسبق . وأخذ يجيل النظر فى الموقف ويستشير فيمن يوليه القيادة :

وقد أشار عليه أصحابه باختيار سعد ابن أبى وقاص ، وقالوا عنه « إنه الأسد عادياً » .

فسلم عمر إلى سعد قيادة الجيوش الإسلامية فى حرب الفرس :

وقد أسر إليه بوصيته التالية :

« إنى قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق. فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتاداً ، فعتاد الخير الصبر :

« يا سعد عليك بالثبات عند الشدائد ، والتجالد فى المكاره ، فاصبر وصابر ، والله مع الصابرين .

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل فيهم السراة وزعماء العرب ، وشيعهم الخليفة عمر إلى موقع الأعوص وأوصاهم وقوى عزائمهم ، فلما بلغوا موقع « زرود » انضم إليه أربعة آلاف ، ثم وافاهم الأشعث ابن قيس فى ألف وسبعمائة وانضمت إليهم قوات المثنى بن حارثة فصار تحت لواء سعد ثلاثون ألفاً كلهم متعطش للجهاد متحمس للفوز .

وجاء كتاب من أمير المؤمنين يقول فيه :

أما بعد ، فسر من « شراف » نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله ، واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمم عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد ، وعلى بلد منيع وإن كان سهلا ، وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدأوهم بالشر والضرب ، وإياكم والمناظرة بجموعهم ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم إلا أن تجادوهم . . وإذا انتهيت إلى القادسية ، والقادسية باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ، ولما يريدونه من تلك الأصل . وهو منزل رغيب خصيب دون قناطر

وإنها ممتنعة ، فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر ، ثم الزم مكانك ، فلا تبرحه فإذا أحسوك أنفضتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة .

وترجمة ذلك الكلام فى « الأوامر » الحديثة هو :

« لا تتوغل فى أرض العدو واتخذ خطة الدفاع الهجومى فى منطقة الحدود فإن العدو سيلقى صعوبة ومشقة فى الوصول إلى مواقعك . إذا انتصرت تكون قضيت على قوتهم الأساسية ويصعب بعدها أن يعدوا قوة مثلها وإذا انهزمت يكون فى استطاعتك الانسحاب بسهولة على أرضك التى تعرفها جيداً ويجهلونها » . . !

وجاءته أيضاً وصية لها قيمتها من جندى باسل عرك هذا الميدان بالذات وكانت له فيه تجارب وخبرات ،وهو المثنى بن حارثة الذى فاضت روحه من جروحه ،وكانت وصية المثنى لسعد ألا يتوغل فى بلاد العدو بل يصمم على قتالهم عند الحدود .

وكتب سعد إلى عمر يصف له القادسية فقال :

القادسية بين الخندق والعتيق ، وإن ما عن يسار القادسية بحر

أخضر فى جوف لاح إلى الحيرة بين طريقين ، فأما أحدهما فعلى الظهر وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى « الحضوض » يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة ، وأن ما عن يمين القادسية إلى الولجة فيض من فيوض مياههم .

وهكذا كانت الاتصالات مستمرة بين الخليفة وقائد جنده يتبادلان خلالها المعلومات ويتفقان بموجبها على الرأى والخطة ، وقد أقام سعد بالقادسية شهراً دون أن يتحرك إليه العدو فلم يضيع الوقت هباء بل كان نشيطاً فى أعمال المخابرات للحصول على المعلومات عن الأرض والماء والكلأ وتحركات العدو . . إلخ .

وبدأ سعد يضع خطته ، فقرر أن يبدأ بالسياسة قبل القتال وكان هذا من رأى عمر[1] تجنباً لإراقة الدماء إذا ما استمع الفرس واستجابوا للحق ، فالهدف الحقيقى لحملة العرب فى فارس لم تكن الغزو والغلبة ، وإنما كانت الدعوة إلى الإسلام ، وإلا فالجزية . . وأخيراً . . الحرب !

بعث سعد وفداً إلى الملك يزد جرد منهم النعمان بن مقرب والأشعث ابن قيس والمغيرة بن شعبة وعمرو بن معدى كرب ، فقابلهم الملك بازدراء واحتقار ، واعتبر أن غزو العرب لفارس نوع من المقامرة والجرأة ، فأجابه النعمان برسالة الحق ودعاه وقومه إلى الإسلام فإذا أبى فالجزاء

---

(١) من عمر إلى سعد : لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به : واستعن بالله وتوكل عليه وابعث إليه « يزد جرد» رجالا من أهل المنظرة «الهيبة» والرأى والجلد يدعونه فإن الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً «نصراً» عليهم .

(أى الجزية) وإلا فالمناجزة (أى الحرب) .

ثم قال المغيرة : اختر إن شئت الجزية عن يد (أى عن ذلة) وأنت صاغر وإن شئت فالسيف أو تسلم فتنجى نفسك .

فرد يزد جرد مغضباً : أتستقبلنى بمثل هذا!! لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ،لا شىء عندى لكم ! ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه أنى مرسل إليكم « رستم » حتى يدفنه ويدفنكم فى خندق القادسية وينكل به وبكم من بعد ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور .

ثم أمر بتراب فحمله أشرفهم—وقد فاز بهذا الشرف عاصم بن عمرو— فلما عادوا إلى سعد ورأى ما يحمله عاصم من تراب فارس قال : أبشروا فقد أعطانا الله مقاليد ملكهم .

وقال يزدجرد لخاصته : لقد وعدت القوم أمراً ليدركنه أو ليموتن عليه .

أما رستم فقد تطير مما حدث !

فقال أحد رجاله :

ذهب القوم بأرضكم من غير ذى شك .

ومكث الفرس أربعة أشهر لا يتقدمون للقتال ، والعرب — كما رأى عمر — يلتزمون مكانهم ، لا ينخدعون من هذا الصمت ولا يبدلون تلك الخطة التى تقضى بالبقاء فى القادسية حتى يسير إليهم الفرس ولا يضجرون بمكانهم فينصرفوا . .

ودفع سعد بمقدمته أمامه وبدأ نشاط المخابرات وغارات الحدود واختبار الجبهة ، ثم أخذ الفرس يتحركون ووصلت طلائعهم إلى نهر العتيق وصاروا قباله قوات المسلمين ؛ وبعث سعد إلى رستم يقول : « إنا لم نأتكم لنطلب الدنيا ، وإنما طلبتنا وهمتنا الآخرة . ونحن ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإخراج العباد من عبادة الأصنام إلى عبادة الله تعالى وأن يكون الناس إخوة » .

ثم أرسل سعد بن عامر فدخل على رستم وهو فى سرير من ذهب وزينة ومظاهر . فكان الزهد والبساطة فى جانب والفخافة والمظاهر فى جانب آخر . . وقال : اختر الإسلام وندعك وأرضك أو الجزاء فتقبل ونكف عنك ! ؟

وقد عاد رستم فطلب مندوباً آخر من قبل الحرب لمزيد من الحوار ، فأرسل سعد إليهم حذيفة بن محصن ، فأقبل على فرسه فى ثياب يسيرة وهيئة متواضعة وليس معه سوى رمحه فقيل له : انزل . . قال ذلك لو كنت جئتكم فى حاجة لى ، فقولوا للككم : أله حاجة ؟ أم لى ؟ فإن قال لى ، فقد كذب ورجعت وتركتكم .

فقال رستم : : دعوه ، ثم سأله : ما جاء بكم ؟

قال : إن الله عز وجل منّ علينا بدينه وأرانا آياته حتى عرفناه وكنا له منكرين ، ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث ، فأيها أجابوا إليها قبلناها : الإسلام وننصرف عنكم ، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك ، أو المنابذة .

فلما كان من الغد أرسل رستم إلى العرب : ابعثوا إلينا رجلا . فبعثوا إليهم المغيرة بن شعبة فأقبل حتى جلس على السرير ، وهم يتظاهرون باحتقاره وتهوين شأنه . . فقال :

« اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » .

وقدم رستم عرضه : « آمر لأميركم بكسوة و بغل وألف درهم ، وآمر لكل رجل منكم بوقر (حمل) وتمر وبثوبين ، وتنصرفون عنا ، فإنى لست أشتهى أن أقتلكم ولا آسركم » .

وكان رد المغيرة :

الإسلام أو الجزية وأنت صاغر وإلا فالسيف !

وفى اليوم التالى بعث سعد إنذاره الأخير على يد ثلاثة من ذوى الرأى ،ولكن لم تصلح المفاوضة وتهيأ الفريقان للحرب ، قال رستم : أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم ؟ قالوا : بل اعبروا إلينا .

وقف العرب فى جانب يشد أزرهم إيمانهم بالرسالة وثقتهم بالنصر أو الشهادة ، وفى الجانب الآخر أقبل الفرس بخيلهم وفيلهم وعددهم وعدتهم واستعد كل فريق للمعركة .

وكان سعد مصاباً بجروح لا يستطيع معها الركوب أو الجلوس فأصدر « الأمر اليومى » لجيشه قال :

إنى قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة ، وليس يمنعنى أن أكون مكانه إلا وجعى الذى يعودنى « النساء » وما بى من الحبون « الدمامل »

فإنى مكب على وجهى وشخصكم لى باد، فاستمعوا له وأطيعوه ، فإنه إنما يأمركم بأمرى ويعمل برأيى .

وكان سعد معنياً بالتعبئة الروحية عالماً بأهمية القوة المعنوية، فجمع الشعراء والخطباء وذوى النجدة والسيادة لكى ينطلقوا بين المجاهدين يحضونهم على الاستبسال ويشجعونهم على المكاره حتى دفعوا فى نفوسهم الحمية وحببوا إليهم الموت فى سبيل الله .

ووضع سعد توقيتات العمليات ، وكان التوقيت بالتكبير .

كبر التكبيرة الأولى فأخذت كل جماعة مكانها ، ثم ثنى فاستعد كل فرد ثم ثلث فتحركت القوات، وأخيراً كبر سعد التكبيرة الرابعة — هى « ساعة الصفر » — فبدأ الزحف العام .

وبدأت الجولة الأولى بمفاجأة كان الفرس قد أعدوها لقهر معنويات العرب ، فقد أخذت الفيلة تؤثر فى الموقف وارتدت أمامها صفوف العرب وكادت تضيع ، وفرت خيلها نفاراً ، فدفع سعد لنجدتها بنى أسد ، فأعملوا نبلهم فى الركبان واستدبروا الفيلة فقطعوا وضنها ، وهنا تغير الموقف وصرخت الفيلة وألقت حملها وعادت مذعورة واستمر القتال حتى غروب الشمس دون أن يحدث تغيير فى موقف القوات ، وإن كانت خسائر بجيلة وأسد كثيرة ، ولكنها وقت العرب وحالت دون إفلات زمام المعركة .

وهكذا انقضى اليوم الأول من أيام القادسية وهو يوم أرماث — كما جاء ذكره فى المراجع القديمة — ومضت ليلة الهدأة — بغير قتال —

ثم كان اليوم الثانى « يوم أغواث » الذى أقبلت فيه الإمدادات من الشام وعلى مقدمتها القعقاع بن عمرو ومنهم خمسة آلاف من ربيع ومضر وألف من اليمن والجميع بقيادة هاشم بن عتبة .

دخل القعقاع المعركة بمظاهرة هائلة ، عشرة بعد عشرة ، فاستبشر الجنود وقويت معنوياتهم ثم تقدم إلى الفرس ونادى : من يبارز ؟ فتقدم أحد شجعانهم فصرعه القعقاع ، ثم أقبل عليه آخرون فجرت عدة مبارزات فردية بين العرب والعجم كان النصر فيها للعرب .. وكان القعقاع يقول « يا معشر المسلمين . باشروهم بالسيوف ، فإنما يحصر الناس بها » .

ودارت رحى المعركة ، وبخاصة بعد انتفاء عنصر المفاجأة — وهو الفيلة — حتى قيل إن الفرس وجدوا من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقى المسلمون من الفيلة يوم أرماث .

وكانت نتيجة المعركة تتجه لصالح المسلمين ، فبلغ عدد القتلى من المسلمين ألفين فى حين كان قتلى الفرس عشرة آلاف .

وكان سعد معنياً بالشئون الإدارية ، فجعل النساء يقمن بدفن الموتى وإسعاف الجرحى ونقل السلاح والماء والغذاء .

ولم يضع الليل سدى .

وكان سعد يأمر فتستعد قواته على نحو ما تستعد القوات الحديثة للعمليات الليلية ، فاتخذت كل جماعة أهبتها وكل جندى استعداده لبدء هجوم الفجر .

وجاءت بقية إمدادات الشام بقيادة هاشم بن عتبة قبيل بدء القتال .

وكان الفرس قد أعدوا للساعة الحاسمة عدتها فأعادوا تنظيمهم وجهزوا عدداً من الفيلة فى حماية المشاة .

وبدأ القتال فى اليوم الثالث « يوم عماس » — المعركة الحاسمة — ونجح هجوم الفيلة ، فقام القعقاع وعاصم بعملية فدائية وأصابا الفيل الأول فى عينه ودخل بعض الفدائيين فصنعوا مثلهم فنفرت الفيلة وفرت مذعورة وأحدثت هرجاً ورعباً . . وبهذا فتح العرب طريقاً فى صفوف الفرس واشتدت رحى المعركة وصارت الدائرة لمن صبر .

وعلاج مشكلة الفيلة فى هذه الموقعة من قبيل معالجة الأسلحة المفاجئة فى الحروب الحديثة ، فالدبابات ثم الغازات السامة كادت تضع نهاية للقتال فى الحرب العالمية الأولى لولا نهوض الطرف الآخر إلى معالجتها بأسلحة مضادة أو أساليب واقعية فضاع عنصر المفاجأة وحول اتجاه المعركة .

وفى الوقت نفسه لم يسلم الفرس بهزيمة الفيلة ، وإنما أحدثوا تطوراً فى استخدامها ، وذلك بدفع قوات راكبة « خيالة » حولها لحمايتها من الفدائيين ، ومع ذلك انتهت المفاجأة ولم تحقق أثرها الذى كان منتظراً .

واستمرت المعركة على أشدها بين الفريقين ، وقد تميزت بإقدام العرب واندفاعهم فى حومة اوت ، وتأرجح المصير ، حتى إن أوامر القائد

العام لم تعد مسيطرة على الموقف ، فقد اندفع طلحة فى ناحية والقعقاع فى ناحية أخرى ، ومضت الليلة فى عراك وخيم العاقبة ، حتى إذا طلع الصبح اتضح أن العرب هم الأعلون واشتد القتال حتى الظهيرة وبدأ الخلل يتسرب إلى صفوف الفرس ، وضاع أمل قائدهم فأسلم إلى الفرار ، ولكن جماعة من المسلمين أحسوا بمحاولته فمضوا وراءه حتى أمسكوا به ، واستطاع هلال التيمى أحد رجال القعقاع أن يقتله بضربة سيف ويصيح « قتلت رستم ، ورب الكعبة » !

حدثت الهزيمة إذن ، وأقرها قائد الفرس ، فحدث الانهيار فى الجبهة ولم تستطع محاولات « الجالينوس » — القائد التالى لرستم — أن تنقذ الجيش المنهار فغرق ثلاثون ألف فارس فى النهر .

وأجرى سعد ما يسمى فى العرف الحديث — عملية إعادة التنظيم — كما أجرى عملية مطاردة القوات المنسحبة ، حتى إذا اطمأن على الموقف بعث إلى الخليفة ينهى إليه بخبر النصر :

« أما بعد ، فإن الله نصرنا على أهل فارس ، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال شديد ، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، وأتبعهم المسلمون على الأنهار فى الفجاج » .

وجاء رد الخليفة أن يبقى القائد فى القادسية حتى تصله أوامر أخرى ، وقد جاءت هذه الأوامر بعد شهرين بالسير إلى المدائن ، فدفع إليها بمقدمة على رأسها زهرة بن الحوية ثم عبدالله بن المعتم ، فالتقوا هم وحاميات

فى الطريق وفلول قوات منهزمة ومقاومات محدودة كان أهمها ماحدث فى بابل،ووصفته الكتب القديمة بأنه « كلفت الرداء » ثم هزم جنود « المظلم » الذين كانوا يقسمون بأن ملك فارس لن يزول ما عاشوا . . فلما دخلها سعد قرأ « أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ؟ ».

وحاصر سعد بلد « بهرسير » شهرين مستخدماً المجانيق والعرادات والدبابات وهى من الأسلحة المؤثرة فى الحصار — حتى أتم غزوها وأسر أهلها .

أخذ سعد يفكر فى عبور دجلة إلى المدائن..

كان أمامه طريقان : إما العبور على سفن ، وهو مالم يكن متيسراً حيث إن الفرس لم يتركوا بها ذات ألواح ودسر.

وإما الخوض ، وهو ما لم يكن على علم به . . فأخذ فى دراسة طرق العبور .

والموانع المائية تعد فى مقدمة ما يضايق الجيوش فى تحركاتها — سواء فى الماضى أو فى الحاضر — وخاصة إذا كان العبور إلى المعركة الحاسمة . .

وقرر سعد العبور من مخاضة دله عليها بعض الدارسين لطبيعة المنطقة ، ولم تكن المشكلة مشكلة العبور فى حد ذاته ، فقد كانت هناك مشكلات أخرى : تأمين العبور — الدفاع عن المنطقة — المقدمة — رأس الكوبرى . .

وكان ينتظره على الضفة الأخرى خطة مقابلة .

ودفع سعد بمقدمة على رأسها عاصم بن عمرو ،وصاح عاصم فى جنوده السبّائة « الرماح . . الرماح . . أشرعوها وتوخوا العيون » ! .

وقالت المصادر القديمة إن من لم يقتل من الفرس صار أعور ! .

ونجحت معركة العبور ، وتلاحق معظم الجند ، وركبوا اللج ،وإن دجلة لترعى بالزبد ، وإن الناس ليتحدثون فى عومهم ما يكترثون، كما يتحدثون فى مسيرهم على الأرض ، وطبقوا دجلة خيلا ورجلا حتى ما يرى الماء من الشاطئ أحد،ثم خرجوا من الماء والخيل تنفض أعرفها صاهلة،فلما رأى الفرس ذلك أنطلقوا لا يلوون على شئ وانتهى المسلمون إلى القصر الأبيض . .

ودخل سعد المدائن وانتهى إلى إيوان كسرى وأقبل يقرأ « كم تركوا من جنات وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكين : كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

وهكذا قاد سعد معركته الكبرى ، وهى إحدى معارك الإسلام الحاسمة،فقضى على دولة الأكاسرة وترك الدليل على كفايته الحربية التى تضعه فى مصاف عظماء القادة ، فكان واسع الأفق فى تقديره الموقف ووضعه الخطة ، واستشارته رفقاءه وتصرفه فى الأزمة وصبره على المكاره . .

وهو إلى جانب كفايته الحربية كان من أعظم المسلمين شأناً وأبقاهم أثراً ، واشتهر بصدقه فى الحديث ودقته فى الرواية حتى قال عنه عمر بن الخطاب :

« إذا حدثك سعد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلا تسأل عنه غيره » ؟

وكان كريم الأخلاق ثابت الوفاء ، وقد روى أنه كان بينه وبين خالد كلام فذهب رجل يقع فى خالد عند سعد . فقال له سعد :

« مه . إن ما بيننا لم يبلغ ديننا » .

وهكذا ختم على فم النمام المغتاب .

وكان سعد رجل مبادئ ، فقد أسلم عن اقتناع ومضى فى صحبة الرسول وخلفائه عن عقيدة ، فإذا صادفه أمر على غير ما يرى سارع إلى المجاهرة به ، حتى إنه كان يراجع النبى (صلى الله عليه وسلم) .

وقد كان أحد الستة أصحاب الشورى الذين عهد إليهم عمر ، وكانت له عصبية كبيرة تريده على الخلافة وهو يأباها ، حتى قال لنا ابن أخيه هاشم إن مائة الف سيف تريده ، فرفض ، وقال على يغبط سعداً وعبد الله بن عمر اعتزالهما الفتنة .

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الأمر له قال :

السلام عليك أيها الملك .

فضحك معاوية وقال : ما كان عليك ياأبا إسحق لو قلت أمير المؤمنين .

فقال سعد : والله ما أحب أنى وليتها بما وليتها به (يقصد أنه وليها بالسيف) .

وعندما حضرته الوفاة طلب جبة له من الصوف كان قد لقى

المشركين فيها يوم بدر، فأخفاها ليوم وفاته « ومات وهو فى الثالثة والثمانين من عمره ، وكان آخر العشرة الكرام موتاً » .

الدروس المستفادة من معركة القادسية

١ ــ أهمية قوة العدو وعدم الاستهانة به : فعلى الرغم من الانتصارات التى أحرزها العرب على الفرس قبل معركة القادسية فإن الخليفة قد بصر قائده سعداً بقوة الخصوم حتى لا تخدعه الظواهر والسوابق وحتى يكون على علم بأن العدو قوى وأن الحذر ضرورى ، فقال : « عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد وعلى بلد منيع وإن كان سهلا » كما قال عنهم إنهم « خدعة مكرة » .

وإنه لمن أشد الخطر بالجيوش عدم إدراكها لقوة عدوها أو استهانتها بأمره .

٢ ــ أهمية الهجوم : وهو مبدأ من مبادئ الحرب ، يجعل المبادأة وحرية التحرك والدوافع المعنوية فى صف المهاجم ، ولهذا قال عمر لسعد : « إذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدأوهم بالشر والضرب » .

٣ ــ أى خطة دفاعية لا تنتهى بالهجوم لا تكون خطة ناجحة محققة للغرض : ولهذا أجمع رأى الخليفة عمر ورأى القائد المجرب المثنى ابن حارثة على ألا يتوغل سعد فى أرض فارس وإنما يلزم مكانه عند القادسية ويلتزم خطة الدفاع حتى تتحطم هجمات الفرس وعندها يبدأ عملياته الهجومية لإحراز النصر الأخير .

٤ — الحرب امتداد للسياسة : على الرغم من استعداد العرب وقدرتهم على اللقاء العاجل، فإن سعداً بدأ يعرض على خصومه الحل السامى تجنباً لإراقة الدماء وتمشياً مع منطق العقل والحكمة والصواب ، وكان الهدف الأصلى هو الدعوة للإسلام ، وليس الحرب للغزو أو الاحتلال ، ولهذا بعث سعد من مقر قيادته ومركز عملياته رسلا إلى يزدجر لإقناعه بالإسلام فلما رفض لم تعد عن الحرب مندوحة .

٥ — استخدام المفاجأة : وقد نجح الفرس فى استخدام المفاجأة بإدخال سلاح جديد فى المعركة لم يألفه العرب وهو « الفيلة » وقد أثر وجود هذه الحيوانات الضخمة الثقيلة تأثيراً شديداً ،فارتدت أمامها الجيوش ونفرت منها الخيول ولم تنفع معها السهام . وكادت المفاجأة تقضى فى المعركة لولا فطانة العرب وقدرتهم على علاج المفاجأة بعد أن هدأت حدتها وأمكن مقاومتها ثم التغلب عليها .

٦ — النصر مع الصبر : كان الواضح طوال معركة القادسية أن النصر يتأرجح ويفد إلى جانب الفريق الآخر ، بمعنى أن القوى متكافئة وأن القتال شاق مرير ، ولهذا يكون الفريق الأكثر احتمالاً وصبراً هو الأقدر على كسب المعركة ومرجع النصر فى المعارك الشديدة هو الروح المعنوية .

٧ — استغلال النجاح : أخفق الفرس فى القضاء على الجيش العربى بعد هزيمته فى معركة الجسر بعدم متابعة الانسحاب وتعزيز النجاح ، ولم تفت

هذه الحقيقة العرب بعد انتصارهم فقاموا بعمليات مطاردة سريعة وشديدة .

٨ ــ أهمية القائد فى المعركة : على الرغم من مرض سعد بن أبى وقاص وقيادته المعركة وهو على فراشه فقد كان رجاله يقدرون قدره ويشعرون بآلامه ودفعهم إلى الاستبسال والتضحية .

وفى الجانب الآخر كان مقتل رستم قائد الفرس نذيراً بانهيار المقاومة واكتمال الهزيمة .



معركة اليرموك



(٨)

كان أول لقاء فى الحرب بين العرب والروم فى « مؤتة » سنة ثمان هجرية .

أرسل النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ملك الروم رسالة ، فوقع حامل الرسالة الحارث بن عمير فى قبضة بنى غسان فقتلوه ، فبعث النبى (ص) سرية — قادها زيد بن حارثة — نزلت معان فى أرض الشام ، فلما سمع الروم بخبرها بعث « هرقل » جيشاً لجباً من مائة ألف مقاتل لصد المسلمين ، جرى قتال غير متكافئ فى قرية « مؤتة » ، واستطاع خالد بن الوليد أن يخدع الروم بإبداء الاستعداد للهجوم ثم قام بعملية انسحاب بارعة سليمة وأنقذ جيش المسلمين .

ولما دانت شبه الجزيرة العربية لراية الإسلام — بعد فتح مكة — بدأ الجهاد الإسلامى يخطو عبر الحدود ، وبلغ جيش المسلمين « تبوك » و « دومة الجندل » فأحرز النصر وفرض الجزية ، وكانت هذه العمليات مقدمة لتحرك أكبر حشد إسلامى بقيادة أسامة بن زيد للقاء الروم لقاءً حاسماً فاصلا .

ولكن هذا اللقاء تأخر عن موعده المقرر ، بسبب وفاة النبى (ص) واتجاه الخليفة الصديق إلى العراق قبل الشام ، فاكتفى عن الحشد الكبير بإرسال سرايا يقودها خالد ابن سعيد بن العاص فجازت حدود الشام تدعو القبائل للانضمام تحت راية الإسلام وتحفزهم إلى شق عصا الطاعة

على الروم ، وقامت تلك السرايا بعدة عمليات قصد بها مناوشة الروم وتثبيتهم دون تورط فى القتال ، فجرت اشتباكات فى « القسطل » و « مرج الصفر » كانت بمثابة مناورات واختبارات إلى أن جاء الوقت المناسب وبلغ الاستعداد الغاية التى رأى عندها الخليفة الصديق أن يدفع الدعوة فى بلاد الشام وفى حمى قوات كبيرة مستعدة لقتال الروم على أوسع مدى .

أمر أبو بكر بالتعبئة العامة ضد الروم فى أواخر العام الثانى عشر من الهجرة ، وجمع لهذه المهمة أربعة جيوش عظيمة يضم كل منها نحو سبعة آلاف مجاهد وعلى رأس كل جيش أحد القادة الميامين ، فجعل على الجيش الأول يزيد بن أبى سفيان وأسند إليه فتح دمشق وعلى الجيش الثانى شرحبيل بن حسنة لاحتلال بصرى وعلى الجيش الثالث عمرو بن العاص وغايته احتلال فلسطين وعلى الجيش الرابع أبو عبيدة ووجهته حمص .

وقال أبو بكر لقواده : إذا اجتمعتم فقائدكم أبو عبيدة .

وتعتبر وصية الصديق وثيقة تضم غاية ما يمكن أن يوجه إليه القواد من تعاليم القيادة وآداب الحرب :

« إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك فى سيرك .. ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك وشاورهم فى الأمر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور ، فإنه لا يفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم » .

« وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

« وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولداً ولا امرأة ولا طفلا ، ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم » .

وفى رسالة أبى بكر إلى قائد جنده يزيد بن أبى سفيان قال :

« إذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه ، وإذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . وأصلح نفسك يصلح لك الناس . وصل الصلوات لأوقاتها وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به وأنزلهم فى ندوة عسكرك، وامنع من قبلك عن محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم ، وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ، واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عنك الأستار ، وأكثر حرسك وبددهم فى عسكرك وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك،فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه فى غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس» .

وفى هذه الرسالة توجيه من القائد الأعلى إلى قائد الجيش يتضمن عدة إرشادات ونصائح فى السياسة والحرب والقيادة ليست صالحة لذلك

الزمن القصى وحسب ، وإنما هى صالحة كل الصلاحية لزمننا هذا العصرى المتقدم دون أن يقال من شأنها تقدم العلوم والمعارف وتطور الأسلحة والمعدات ، وفى مقدمة ما أراده أبو بكر :

١ ـ أن يكون القائد مثلا أعلى لجنوده ، وكيفما يكن القائد يكن الجنود .

٢ ـ حسن معاملة القائد لجنوده ، ومعرفته بهم ومحادثتهم دون ما إفراط .

٣ ـ العناية بمقدم رسل العدو إذا ما دعا السلام دون إطالة اللقاء والحديث ومع صيانة الأسرار.

٤ ـ العناية بالأمن والحراسة .

تحركت الجيوش العربية تباعاً واجتازت الحدود وانتشرت كما تنتظر المروحة فاتجهت كل شعبة على طريق هدفها حتى يقع العدو فى شرك توزيع قواته على مساحات واسعة وجبهات متعددة . فلا تكون الحرب ، كما أراد ، معركة واحدة يضيع فيها كل ثقله وخيله ورجله .

كان التكوين المعنوى والمادى فى جانب الروم ولكن جيشهم اللجب كان يحمل فى طياته عوامل الهزيمة أكثر مما يحمل عوامل الغنيمة، فقد كان الجيش الرومانى خليطاً من الروم والأرمن والعرب والمرتزقة ولا يجتمعون على مبدأ سليم أو عقيدة صادقة ، وإنما يمثلون دولة الرومان قرب مغيب شمسها ، من خلاف على المذاهب الدينية ، وفقدان للوحدة بين الرياسة

والأهالى وقواد الجيوش ، وانتشار الخلافات والفتن * .

كما أن نظام الجيش الرومانى قد أصابه الخلل من جراء اضمحلال الروح المعنوية وفتور الشعور بالحمية وإرباء السلم والدعة عن الجهاد وانصراف الثوار إلى المكاسب الشخصية والنهب والسلب والعربدة .

ولم يكن للجيش الرومانى حمية العرب ولا اندفاعات الفرس ، فالعرب يقاتلون عن عقيدة ويقبلون على الموت للنصر أو الشهادة ، والعرب كانوا يحاربون الفرس دفاعاً عن العراق ، وكانت عاصمتهم المدائن فى داخل العراق على شاطىء دجلة .. أما الروم فكانوا يعتبرون الشام ولاية رومانية يحكمونها ، وكانت عاصمتهم القسطنطينية بعيدة عن بيت المقدس ودمشق .

وهكذا كانت المعركة المرتقبة معركة معنويات تفصل فيها العقيدة والحمية كما يفصل العدد والسلاح ، وربما فطن الروم للنتيجة سلفاً بما بلغهم من انتصارات المسلمين فى فارس وما علموه عن جنود الإسلام من شجاعة وبسالة وإقدام .

---

* قريب من ذلك الوصف ما كان عليه جيش الروم فى حرب الثغور ضد سيف الدولة ابن حمدان على حد قول المتنبى :

أتوك يجرون الحديد كأنما ... سروا بجياد ما لهن قوائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه ... وفى أذن الجوزاء منه زمازم

تجمع فيه كل لسن وأمة ... فما تفهم الحداث إلا التراجم

فلله وقت ذوب الغش ناره ... فلم يبق إلا صارم أو ضبارم

تحركت الجيوش العربية عبر الحدود الشمالية فى الشام ، وكان جيش يزيد بمثابة المقدمة التى دفعت المقاومات وطردت حراس الحدود وأمنت الطريق فى تقدمها نحو غزة ثم،تبعته باقى الجيوش فجازت الحدود واتجه كل منها على طريق هدفه وتناهت أخبار الجيوش الأربعة إلى هرقل فاضطرته إلى تعديل خطته وتوزيع قواته ، فوجه إلى كل جيش عربى جيشاً رومياًّ يفوقه عدداً وعدة وسلاحاً،فبعث قائده « تداراق » على رأس تسعين ألفاً لمواجهة عمرو بن العاص ، و « الفيقار» على رأس ستين ألفاً لمواجهة أبى عبيدة «والدراقص» على رأس ستين ألفاً لمواجهة شرحبيل ؟ « وابن تدرا » على رأس أربعين ألفاً لمواجهة يزيد .

واستعد الجانبان للمعركة ، والتفوق العددى فى جانب الروم .

وتشاور القواد العرب وتدارسوا الموقف واستقر الرأى على أن المعركة لن تكون متكافئة وأن اجتماع الجيوش العربية فى صعيد واحد يفضل هذا التوزيع ، وقال عمرو بن العاص :

« الرأى الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغاب من قلة »

ولما أرسل فى طلب رأى الخليفة أبى بكر قال بالاجتماع :

« اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً ، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من خذله،ولن يؤتى مثلكم من قلة وإنما يؤتى عشرة الآلاف والزيادة عن عشرة الآلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين » ..

ثم تجمع الجيوش العربية اليرموك بقيادة أبي عبيدة .

وإزاء ذلك التحول الكبير فى الخطة اضطر هرقل إلى تعديل خطته فجمع جيوشه عند « الواقوصة » على اليرموك ، فى موقع « واسع القض واسع المطرد ضيق المهرب » أى أنه أراد لقواته أن تهجم ولا تفكر فى الارتداد.

ونظر عمرو بن العاص نظرة ذكية إلى الميدان فإذا الروم فى سهل فسيح وقد جعلوا ظهورهم إلى ممر ضيق، ففطن إلى أن انسحابهم سيكون شاقاً إذا ما أجبروا على الانسحاب ، وقال عمرو :

« أيها الناس : أبشروا ،حصرت والله الروم .. وقلما جاء محصور بخير » .

وإذا كان العرب اختاروا مكان التجمع المناسب الذى يجعل لهم المبادأة وحرية الحركة ، وإذا كان الروم قد نزلوا منزلا يفقدهم تلك المزايا فإن التفوق فى العدد والعدة والسلاح كان فى جانب الروم .

وأرسل القائد العربى إلى الخليفة الصديق يشرح له الموقف ويطلب مدداً غزيراً ، ولم يجد الخليفة ما يجيب به القائد على العجل والمعركة الحاسمة وشيكة الحدوث وكان الموقف فى العراق غير عاجل ، فكتب الخليفة إلى القائد النابه خالد بن الوليد يطلب إليه أن يسارع بنصف الجيش فى العراق لإنجاد جيش الشام ، وسارع خالد فأطاع الأمر وقاد عشرة آلاف مجاهد عبر البادية المخوفة بسرعة فائقة ، وقد اختار أصعب الطرق وأعسرها ، حتى ينزل على جانب جيش الروم فجأة وكان له ما شاءته إرادته الحديدية ، فبلغ غايته قبل بدء المعركة التى تقرر أن يتولى قيادتها ويحسم أمرها .

ومثل هذا الحدث التاريخى فى حاجة إلى مراجعة واعتبار ، فإن الجيوش العربية كانت تواجه الروم وعلى رأس كل جيش قائده ، وعقدت القيادة العامة لأبى عبيدة .. وقبل لحظات من بدء المعركة الحاسمة يطير من العراق قائد جديد يمثل النجدة والمدد ويحمل أيضاً أمر الخليفة بأن يتسلم مقاليد الأمور وصولجان القيادة .

كتب أبو بكر إلى أبى عبيدة .

« سلام الله عليك . أما بعد فقد وليت خالداً قتال العدو فى الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع ، فإنى لم أبعثه عليك لأنه عندى خير منك ولكنى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك ... » .

... هذا الكلام الحر الشجاع الواضح الصريح ينبئ عن عقلية كبيرة وإيمان صادق ورأى صواب ، فالحرب ليست نزهة أو استعراضاً يتولاه الأصحاب ولكنها العملية الدامية والمسئولية العليا يتولاها الماهر المحنك الضليع .

لقد أراد الخليفة أن يكسب معركة فاصلة ، فأرسل إليها قائداً منتصراً وقرر واثقاً « لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

أما بالنسبة لخالد ، فإنه لم يسع للقيادة ولم يفرح بحوزتها وإنما نظر فى الموقف نظرة المسئول وهو يتلقى الأمر الذى لا راد له ، فأول واجب على الجندى إطاعة الأوامر .

ولم ينس خالد الناحية الإنسانية فكتب إلى زميله أبى عبيدة يوضح له ما قد يكون خافياً عنه ، قال :

« أتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى بالسير إلى الشام ،

وبالمقام على قيدها والتولى لأمرها ،
والله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه ،
وأنت — رحمك الله — على حالك التى كنت عليها ،
لايعصى أمرك ولا يخالف رأيك ولا يقطع أمر دونك ،
فأنت سيد من سادات المسلمين لا ينكر فضلك ولا يستغنى عن رأيك . . . » .

وهكذا أوضحوا —قبل مئات السنين— مبادئ الجندية وأصول القيادة وأظهروا أفضل ما فى الجندية « نقاء رجال الحرب » ، هؤلاء المجاهدين الأبرار والجنود المغاوير الذين قادوا صفوف المسلمين لا يرجون كسباً ولا غنما ولا شهرة وإنما يبتغون وجه الله وعزة الإسلام وشرف النصر للأمة العربية .

تولى خالد بن الوليد قيادة الجبهة العربية ، وعمل تحت قيادته قواد الجيوش الأربعة التى أعدها الخليفة أبو بكر لفتح الشام .

ووقف الجيش العربى عند اليرموك فى مواجهة جيش الروم واستعد كل من الفريقين لمعركة فاصلة .

قبل أن يبدأ التحرك للمعركة قال خالد بن الوليد لقواد جيوشه :
هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ،
أخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم ، فإن هذا اليوم له ما بعده»
« يوم له ما بعده » . . .

كان هذا هو وصف القائد العربى اللماح ليوم معركة اليرموك ، فانتصار الجيش الإسلامى معناه أن ترتفع راية الإسلام والعروبة على ربوع الشام

وفتح الطريق إلى جميع بقاع إمبراطورية الروم الشرقية ؛

أما هزيمة الجيش الإسلامى فمعناه ضياع أكبر قوة عسكرية مدربة ومعززة بمشاهير الثوار مما يغرى جيش الروم بغزو الجزيرة العربية وتعريض الدعوة الإسلامية للنكسة ؛

وأما هزيمة الروم فى اليرموك فتعنى الفصل فى مصير الشام ومصير دولة الروم وانتزاع بيت المقدس ودخول مصر فى جامعة الوطن العربى ، ولهذا بلغ استعداد كل فريق غايته ، وانتظر كل منهما حركة الفريق الآخر فى حذر .

وضع خالد خطة عملياته على أساس أن يبدأ الروم الهجوم ، فإذا ما تبددت الهجمة الأولى تبدأ عملية تثبيت بالمواجهة ويجرى الالتفاف على الجانب الأيمن ، فإذا ارتد العدو أمكن الجناحان الإطباق عليه كما يفعل طرفا الكماشة .

معنى هذا أنه وضع قوة فى الوسط لتلقى هجوم الروم ، ويتولى قيادة هذه الجبهة أبو عبيدة وجعل على الميمنة قوات خفيفة يقودها عمرو بن العاص ، وعلى الميسرة قوات مماثلة يقودها أبو سفيان .. وجعل القيادة العامة بمثابة احتياط وعمق معد للتحرك السريع لتعزيز النجاح أو إنقاذ أى موقف يجد .

واتخذ خالد نظام الكراديس أى المجموعات وعلى رأس كل كردوس أحد المناضلين ذوى الخبرة ، وكانت هذه أول معركة تنظم فيها الجيوش

العربية تنظيما جديداً – لا يقوم على أساس النظام القبلى ولكن على أساس العناصر اللازمة لكل مجموعة والترتيب المناسب لاحتياجات المعركة .

وكان رأيه فى ذلك أن العدو قد كثر وطغى وليس أكثر فى العين من نظام الكراديس .

وعنى خالد باستنهاض الهمم وشحذ العزائم فجعل يزيد بن أبى سفيان يتنقل بين الكراديس يشجع المجاهدين ويستثير حميتهم وجعل المقداد يقرأ من سورة الانفال وجعل رئيس كل كردوس ينشط عزائم رجاله ويقدم إليهم التوجيهات وينقل إليهم ما خطر لعمرو بن العاص :

« غضوا الأبصار واجثوا على الركب وأشرعوا الرماح فإذ حملوا عليكم فامهلوهم حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد .:. فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم فإنهم لو صدقتم الحملة تطايروا تطاير الحجول . . . » .

وكان لنساء المسلمين دور فى المعركة ، فقد جئن مع الحملة واتخذن موقعاً خلف الصفوف حتى يعلم المجاهدون حماة الإسلام وطلاب الشهادة أنهم يدافعون عن العرض والشرف والدين ، فلا تكون رجعة ولا ارتداد وإنما استعانة واستقتال .

ودارت رحى المعركة بهجوم الروم هجوماً عاماً بالفرسان والمشاة على قلب الجيش العربى ، فكانت صدمة ترنح لها التشكيل وهزة اعترت

الميدان كله فتراجعت كراديس الوسط أمام شدة الهجوم وانطلاق الفرسان وفتحت ثغرة فى صفوف العرب .

ولما بلغت الصدمة مداها وأحدثت ما أحدثت من تخلخل وانكسار وبدأت وهجة المفاجأة تتلاشى تجمع العرب فى وجه تيار الهجوم وانتفض الحماس بعدد يبلغ الأربعمائة مجاهد فبايعوا على الموت وانقضوا فى معمعانه فذهبوا بين شهيد وجريح حتى حل الثبات محل الهرج وتماسك الصف العربى واشتدت روح المقاومة والصدام .

ونظر خالد فإذا فرسان الروم ، وقد استخفهم النصر يسارعون فى عملياتهم فأوجد ذلك ثغرة بينهم وبين المشاة ، وكانت فرصة خالد ، الذى انقض بقواته بين الفرسان والمشاة واقتحم إلى قلب قوات الروم فعدل ميزان المعركة وحمى وطيس القتال وانطلقت السهام والرماح ، ووجلت الخيول واضطربت مشاة الروم وانقلب الموقف تماماً فى أخريات اليوم وشمل الميدان كله اهتزاز تحت أقدام الروم فسقطوا أو لاذوا بالفرار ، والمجاهدون العرب وراءهم بالمرصاد وقد اشتد حماسهم وتوالى تقدمهم وبدأ النصر قاب قوسين أو أدنى .

ووصلت الأخبار إلى هرقل وكان جد مشغول منذ دارت رحى الحرب ، فلم يستطع ثباتاً ولم يقدر على إصدار أمر الدفاع والمقاومة ، وإنما سارع إلى عاصمة ملكه وأصدر أمراً بالمقاومة والثبات فى حمص كمحاولة لوقف تيار الانقضاض العربى ، ولكن — كما ذكرت المراجع القديمة — كان قد سلم بالهزيمة وأنه ودع سوريا وداعاً أخيراً تمثل فى قوله :

« سلام عليك يا سوريا . . سلاماً لا لقاء بعده » .

وهكذا لم يمض على معركة اليرموك سوى يوم وليلة حتى قضى فيها بالنصر للعرب والهزيمة والارتداد للروم، وفتحت دمشق أبواب حصونها للمسلمين بعد حصار دام شهرين فدخلوا غوطتها حيث السهل الفسيح والأنهار الجارية والأشجار والأعناب والرياحين وبعدها تم الاستيلاء على حمص وحماة واللاذقية وقنسرين .

وفى أواخر سنة ١٥ هجرية دخل المسلمون بيت المقدس .

وكأنما حقق العرب أمر الخليفة أبى بكر بحذافيره . إذ كان قد كتب لأبى عبيدة قبل فتح الشام يقول :

« أما بعد ، فابدأوا بدمشق فانهدوا لها ، فإنها حصن الشام وبيت مملكتهم ، واشغلوا عنكم أهل (فحل) بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم ، فإن فتحها الله قبل دمشق فذلك الذى نحب وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها . وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على (فحل) فإن فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص وضع شرحبيل وعمراً بالأردن وفلسطين » .

وكان الذى حدث بعد فتح دمشق أن صارت قاعدة للجيوش العربية تحت قيادة يزيد بن أبى سفيان ، وزحف شرحبيل إلى (فحل) فغلبوا الروم عندها ، وتقدم أبو عبيدة ومعه خالد فاستولى على حمص وحماة واللاذقية ثم دخل خالد « قنسرين » ، وزحف عمرو بن العاص فحاصر بيسان حتى طلب أهلها الصلح ودخل شرحبيل طبرية ، وتابع

عمرو زحفه فدخل أجنادين وسقطت مدن « فلسطين » يافا ونابلس ، وعسقلان وغزة وعكا ثم حاصر بيت المقدس واضطرت حاميته للتسليم بشرط أن يكون ذلك على يد عمر بن الخطاب الذى أقبل يحف به قواده العظام فأعطى الأمان وسلمت له المدينة المقدسة فمنحها الحرية الدينية والعدالة والسلام .

وهكذا حققت معركة اليرموك غايتها الكبرى وتم فتح الشام ورفرفت عليه راية الإسلام والعروبة .

وبهذا تعتبر معركة اليرموك من معارك الإسلام الكبرى .

وقد كشفت معركة اليرموك عن كثير من الدروس العظام وسجلت فصلا باهراً فى القيادة ينبغى أن نحتفل به ونقدمه عنوان مجد وفخار للجندية العربية والنقاء العسكرى الإسلامى .

وعندما ظهر للخليفة أبى بكر أن المعركة التى كانت مرتقبة فى الشام ستكون معركة ضارية وفاصلة ، رأى أن يعهد بالقيادة العامة لخالد بن الوليد وانتقل خالد على جناح السرعة من العراق إلى الشام وتسلم الموقف وباشر مهام قيادته ووضع الخطة وحرك القوات للعملية وكسب المعركة .

وحدثت مفاجأة تبدل لها الموقف فى القيادة العامة .

لقد مات الخليفة أبو بكر وتولى الخلافة عمر بن الخطاب .

وقد قرر عمر عزل خالد وتولية أبى عبيدة قيادة الجيوش فى المعركة الدائرة الرحى ، ووصل القرار إلى أبى عبيدة فكتمه حتى انجلى الموقف وظهرت

علامات النصر ، فأبلغه خالداً الذى تلقاه بثبات ونزل عن القيادة لأبى عبيدة .

إنها حادثة القيادة فى التاريخ كله وأبلغها درساً وأجلها مقاماً .

فإن القائد المنتصر قد صدر قرار عزله وهو ينظر مصارع خصومه ويرفع ألوية انتصاره فلم يبد عليه أى تأثير أو انحراف أو ضيق وإنما أطاع الأمر فى الحال ونزل عن القيادة بكل ارتياح ولم يطلب المعاش أو العودة إلى بلده ، وإنما استمر تحت قيادة القائد الجديد يوجهه على حسب دوره ووفق احتياجات المعارك .

والقائد الجديد لم تسكره الفرحة ولم يعجل بتسلم القيادة وإنما كتم السر فى نفسه حتى تحقق النصر ، ثم أعلن الخبر لصاحبه على استحياء .

وهكذا قال لنا خالد بن الوليد : إن أول واجب على الجندى إطاعة الأمر ، وعلى الفور ، وبدون تردد .

وقال لنا أبو عبيدة : إن القيادة مسئولية وليست غنماً ولا جاهاً ولا شهرة .

وقال عمر : رحم الله أبا بكر كان أعلم منى بالرجال .

وقال لخالد : ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس فخفت أن تفتتن بالناس .

وهذا درس عظيم القيمة لجميع القادة من كل الأجناس ، وفى كل الأزمان .

وقد يكون لزاماً علينا فى ختام دراسة تلك المعركة الكبيرة أن نذكر طرفاً من أمر قائدها المغوار وبطلها الفذ النابغة .

حارب خالد الفرس فى خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخطئ ولم يفشل قط فى واحدة منها ،وكان يسير بجيشه دائماً على تعبئة كاملة فيقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئاً أو غير مفاجئ وكان – كما وصفه عمرو بن العاص – فى أناة القطاة ووثبة الأسد » فلا يهمل الحيطة ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة .

وكان خالد يعمل بمبادئ الحرب – قبل نابليون بمئات السنين ، فهو كان دائماً فى كامل (الحشد) فى الزمان والمكان الحاسمين ، وهو لا يسرف فى استخدام رجاله ، فإذا كان استخدام ألف رجل يغنى عن ألفين اكتفى بألف رجل مطبقاً مبدأ « الاقتصاد فى القوة » وهو يبعث العيون والطلائع ويرسل المقدمة ، أو يضع رجالا فى أعلى الجبل للمحافظة قاصداً (الوقاية) وهو يقبل على الموت بروح هجومية غلابة ، لعلمه بأن النصر يتطلب « الأعمال التعرضية » كما أنه يوحى إلى خصمه بغير ما ينتوى حتى يستخدم « المفاجأة » .

ومما يذكر لخالد فى مقام الثقة بالنفس – وهى من دعائم القيادة – أنه كتب لقائد الفرس قبل المعركة يخيره بين الإسلام أو الجزية أو الحرب ويقول : جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة .

فلما طلب قائد الفرس مبارزته نزل خالد وصارعه وصرعه .

وعندما التقى الجيشان انتصر العرب فى وقعة « ذات السلاسل »

وهرب الفرس . ثم اشتبكا فى وقعة « القار» التى بلغ قتلى الفرس فيها ثلاثين ألفاً وهرب الباقون ، وكان ذلك نصيب الباقين فى وقائع « الوجه » و « أليس » و « الفراض » من وقائع حرب العراق التى قضت على نفوذ الشاهنشاه الأعظم !

وقال أبو بكر : عقمت النساء أن يلدن مثل خالد بن الوليد .

وقال فى موضوع آخر : لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد .

وبلغ خالد فى معركة اليرموك قمته العليا التى لا مرتقى بعدها لراق .. قمع فتنة الردة ، وهزم دولة الأكاسرة ووحد قيادة المسلمين ، وهزم الرومان، فكان صاحب دور تاريخى يضعه بين عظماء القادة فى جميع الأزمان .

الدروس المستفادة من معركة اليرموك

١ ــ أهمية السرعة فى الحرب : لو بدأت معركة اليرموك قبل وصول خالد ابن الوليد لكان للعرب فيها شأن آخر ، غير ذلك النصر المؤزر الذى قضى على الجيش الرومانى وأدخل الشام فى جماعة الوطن العربى ، وقد كان خالد قبل المعركة بفترة كافية هو الحدث الذى قرر مصير المعركة ونقل النصر من عسكر إلى عسكر ، ولم يكن خالد ليصل إلى المعركة فى الوقت المناسب لولا خفة حركته وما كان يدرك من أهمية السرعة فى الحرب ، فإن انتقاله من العراق إلى الشام على مفازة

مهلكة تبلغ ستمائة ميل قاد فيها عشرة آلاف مجاهد وقطع المسافة بين الحيرة و بصرى فى ثمانية عشر يوماً ، وطوى مسافة اليومين فى يوم واحد .

٢ ـ الطاعة قبل القيادة : بغير قيادة لا يكون عمل عسكرى ، ومن غير طاعة لا تكون قيادة ، فالطاعة خميرة الجندية. وتعلم الطاعة واعتيادها سابق لتعليم القيادة وفنونها . و واجب القائد أن يتلقى الأوامر ويتحمل التبعة فى الحال إذا استقام الأمر واستقرت التبعة ، و واجبه أن يراجع إذا اتسع مجال المراجعة .

وهكذا ضرب خالد بن الوليد المثل الأعلى فى الطاعة والقيادة ، وكان علماً بموقع الطاعة وموقع المراجعة وموقع المشاورة حتى يصل إلى الحد الذى يحمل التبعة فيه .

٣ ـ شروط الموقع الدفاعى الصحيح : قرر عاهل الروم أن يضع جيشه فى موضع « واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب بين النهر والبحيرة والوادى الذى يواجهه جيش المسلمين . لا يسمح له بالانسحاب وهو على حق إذا بلغت معنويات الجنود هذا المبلغ من التصميم والمغامرة ، غير أنه لا بد لكل خطة من عنصر الاحتياط والموقع الدفاعى ينبغى أن تكون له خطوط انسحاب مأمونة حتى إذا حدث تراجع يكون الانسحاب سليماً » .

ولهذا قال عمرو بن العاص عندما ما ألقى نظرة على الموقع « حصرت والله الروم » .

٤ ــ أهمية الغرض عند المحارب : كان الفريقان فى « اليرموك » يعلمان أنها معركة فاصلة فى مصير الشام .

المسلمون حاربوا بالدعوة ، جهاداً فى سبيل الله ، والروم حاربوا للاحتفاظ بولاية الشام البعيدة عن مملكتهم الأصلية ولحماية بيت المقدس الذى استولى عليه الفرس من قبل ، وكانوا على حال من الاستهانة فى الحرب والحرص على الحياة وفقدان النظام مما جعل النصر بعيداً عن متناولهم .



معركة حطّين



ما أشبه الليلة بالبارحة .

إن المأساة نفسها يجرى تمثيلها من جديد ، وعلى نفس المسرح : فلسطين .

البارحة : غارات الصليب بدعوى حماية الأماكن المقدسة .

والليلة : عدوان الاستعمار بغرض تثبيت إسرائيل ودعمها .

والهدف : قهر الوطن العربى حتى يظل خاضعاً خانعاً لا تقوم له قائمة.

والطريقة : إشاعة الفرقة والخلاف بين العرب فتتبدد قوتهم وتتضارب خططهم وتذهب ريحهم ، فيستسلمون . .

وكادت المؤامرة تحقق أغراضها فى الماضى بسبب أطماع حكام الأقطار العربية وتفرق الكلمة ، فأقبل الخطر بخيله ورجاله ودعواه ودعايته وتعرض الوطن العربى للهزيمة وأشرف على الضياع ، لولا أن قيض الله له جندياً شجاعاً ووطنياً عربياً حكيماً هو صلاح الدين الأيوبى الذى قاد الجهاد بثاقب نظره وحسن سياسته وخبرته بفنون الحرب والحكم ، فنادى بالوحدة العربية وقاد الجيش العربى الموحد ، وصد غارات الصليب عن الشرق وأهله واستبقى للحضارة الإسلامية فاعليتها وقدراتها .

كذلك كادت المؤامرة تنجح فى الحاضر بفضل الدعاية التى عمت الأقطار لنصرة الصهيونية وبفضل المحاولات الإمبريالية للنيل من وحدة العرب وتفريق جمعهم بالضغط وبالرشوة وبالإغراء مستخدمين شعارات

شتى كالأحلاف العسكرية والمعونة الاقتصادية والمصالح المشتركة والتبادل الثقافى ومقاومة المبادئ الهدّامة .

ولقد لاح الخطر الصليبي فى فترة اقترنت بضعف أو انحلال الدولة العباسية والدولة الفاطمية فى آن معاً .

لقد كان ضعف القيادة هو السبب الأول فى انحطاط الدولة العباسية ، إذ انصرف الخلفاء عن الجهاد وحكمت عناصر أجنبية ، وشاعت الفرقة وعمت عوامل الفوضى والانحلال مما أورد البلاد موارد الضياع ، فصارت حمى مباحا !

أما الحرب الصليبية فكانت حادثة جنون من حوادث التاريخ الشاذة جاءت من الغرب كالرياح الهوجاء تذكوها النعرة الدينية تدفعها الأطماع الأشعبية فشغلت من عمر الدهر قرنين كاملين عبات خلالهما أوربا قوات تستظل بالصليب وتدعى حماية بيت المقدس وتنشد دحر المسلمين وقهر الوطن العربى .

وكانت خاتمة الصراع الصليبي فى « معركة حطين » حيث أحرز صلاح الدين قائد الجيش العربى الموحد انتصاراً تاريخيًّا خالداً .

كانت سياسة صلاح الدين تستهدف غرضين رئيسيين :

أولهما : توحيد كلمة العرب .

ثانيهما : طرد الصليبيين من فلسطين .

وقد تم له تحقيق الغرض الأول فأصبح السلطان غير المنازع فى مصر والشام جميعاً ، وبعدها شرع فى تحقيق غرضه الثانى .

بدأت غارة الصليب الأولى فى سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦) م ، وقد نجحت فى إنشاء مملكة لاتينية فى القدس وطراباس والرها .

وكانت الغارة الثانية فى سنة ٥٤١ هـ (١١٤٧ م) فى عهد السلطان نور الدين محمود ولم تحقق أغراضها .

أما الغارة الثالثة فقد اشتعل أوراها فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) فى عهد صلاح الدين الأيوبى .

كانت بين المسلمين والصليبيين هدنة أتفق عليها فى سنة ١١٨٤ لمدة ٤ سنوات ولكنها كانت هدنة لا تخلو من أسباب الخداع وتتخللها محاولات مستمرة من جانب الصليبيين خاصة وقد شعروا بالخطر المطبق عليهم من قيام صلاح الدين وتوحيده كلمة المسلمين وتوليه قيادة جيش عربى موحد .

وكانت تلك الهدنة فى جانب صلاح الدين حيث استطاع خلالها أن يتم استعدادته وأن يدعم بناء الجيش والدولة ويقضى على أسباب الضعف والتخلف والاختلاف ، ولكنه لم يسارع — حين أتم استعداده — إلى القتال بل حفظ العهد وصبر على الموقف حتى يجئ خرق الهدنة من الجانب الآخر الذى بدأ يمل الانتظار وتدفعه طبيعته المتمردة المتهورة إلى التماس أسباب الانقضاض برغم ما اعترى معسكره من عوامل الضعف والانحراف .

كان « أرناط » قائد حامية الكرك غرا متهوراً غداراً انقض علي

قافلة حجاج مسلمين فقتل وأسروغنم ، وكان ذلك خرقاً منه للهدنة وإشعالا للحرب .

ومن مقر قيادته العليا فى دمشق دفع صلاح الدين جيشاً إلى الكرك وجيشاً إلى عكا ولم يلجأ إلى أسلوب الغارات وإنما رأى التجمع لمعركة فاصلة ، وكان يرى أن أمامه رسالة واجبة الأداء ، وأثر عنه قوله :

« إن الأمور لا تجرى بحكم الإنسان ، ولا نعلم قدر الباقى من أعمارنا ، ولا ينبغى أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجهد بالجهاد . . »

وفى ميدان المعركة كان الصليبيون يتخذون مواقع دفاعاتهم عن جبل طبرية من الغرب ، وهاجم صلاح الدين مدينة طبرية حتى يخرج الصليبيين من حصونهم للمقاتلة فى الخلاء ودمر صهاريج المياه وحال دون مصادر المياه الطبيعية مستغلا ظروف وقدة الصيف ، وقد حاولوا عبثاً أن يشقوا طريقهم بالقوة إلى الماء وصاروا محصورين ولكنهم احتموا بجبل صغير عند حطين ونظموا دفاعهم ، وهكذا تحدد ميدان العمليات ودارت رحى القتال .

واستمرت الهجمات من الجانبين ، والمبادأة وحرية الحركة والروح المعنوية فى جانب المسلمين ، فقد الصليبيون بمضى الوقت قدرتهم على القتال وصبرهم على العطش ، فلم يجدوا بداً من التسليم .

وأسفرت المعركة عن كثير من القتلى وكثير من الأسرى ، أو كما جاء فى المراجع « كان من يرى الأسرى لكثرتهم لا يظن أن هناك قتلى ، فإذا رأى القتلى حسب أنه لم يكن هناك أسرى » .

قتل صلاح الدين عدوه وعدو الإسلام أرناط ، أما الملك « كى » فقد أحسن صلاح الدين معاملته وله فى ذلك قول مشهور .

« لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك » .

وهكذا تمت فى خلال يومين معركة من أشهر وأهم معارك التاريخ ، فقد كانت هزيمته ما حقة للصليبيين ونذيراً بجلائهم عن فلسطين .

وبعدها سلمت طبرية وقلاعها ثم سلمت عكا ويافا وكافة الحصون والقلاع التى أقامها وتمتع فيها الصليبيون ردحاً من الزمان .

وحشد صلاح الدين قوة تواجه صور التى تجمع إليها انسحاب الصليبيين ، وسار بقواته الرئيسية فى قلب فلسطين قاصداً بيت المقدس فأحكم حولها الحصار وشرع يهاجمها .

وبعد أسبوع من الحصار الشديد والهجوم المرير فقد الصليبيون قدرتهم على المقاومة وطلبوا التفاوض وقبلوا شروط التسليم ، وكان ذلك فى شهر أكتوبر ١١٨٧ م .

ودخل المسلمون بيت المقدس وأدوا الصلاة فى المسجد الأقصى وأقاموا المنبر الذى كان نور الدين محمود قد أعده قبل عشرين سنة .

وعن القدس قال صلاح الدين — فى كتاب لريتشارد قلب الأسد وآخر قائد للصليبيين فى فلسطين :

« أما القدس فهو لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما عندكم ، إنه مسرى نبينا ومجمع الملائكة . . فلا تتصور أن ننزل عنه ، وأما البلاد فهى لنا فى الأصل واستيلاؤكم عليها كان طارئاً لضعف من كان فيها

من المسلمين ، فى ذلك الحين » .

وفى هذه الكلمة تتضح سياسة صلاح الدين .

وهى سياسة صالحة لأيامنا هذه برغم مرور مئات السنين .

وخلاصة الرسالة أو السياسة : أن بلاد العرب للعرب ، وأن القدس فى رحابهم وساحتهم وأن وجود الصهيونيين اليوم ظاهرة شاذة كوجود الصليبيين بالأمس .

وهدف الرسالة أو السياسة هو توحيد الصفوف وجمع كلمة العرب ، فبالوحدة العربية والجيش العربى الموحد يضيع كل أمل للصهيونية ومن ورائها الإمبريالية ولا يقوم نفوذ أجنبى من أى نوع فى هذه البلاد .

فهل يعيد التاريخ نفسه .

وبهذا الرأى دفع الخطر الذى تهدد الوطن العربى وكسب المعركة وأجلى الاستعمار الصليبى وأعطى البلاد الحرية والقوة والسلم .

الدروس المستفادة من معركة حطين

١ ــ الاستراتجية قبل التكتيك : كان صلاح الدين ينظر نظرة استراتجية حصيفة وهو يواجه الاستعمار الصليبى فى فاسطين ــ والاستراتجية هى إعداد جميع القوى وإمكانيات الدولة لمواجهة الحرب التى تخوضها الدولة ، والتكتيك هو فن إدارة المعارك وعمليات القتال ــ فكان قبل معركة حطين قد فرغ من توحيد البلاد ونظم ودرب الجيش العربى الموحد وأعد عدته للسيطرة على مصادر المؤن والمياه

وكسب المعركة المعنوية قبل اللقاء الحربى

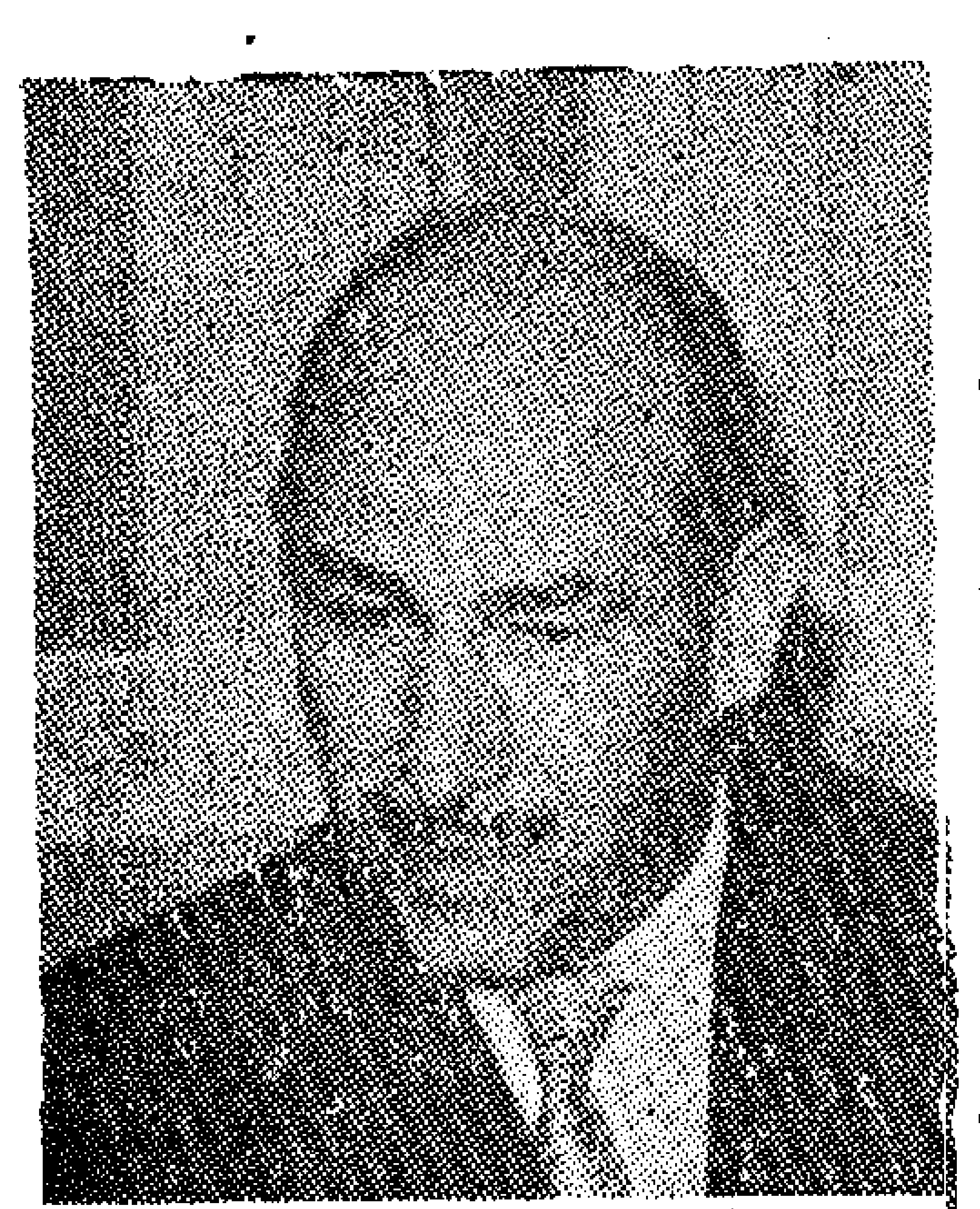
إن الاستراتجية الناجحة تعتمد أكثر ما تعتمد على استخدام الوسائل المعنوية الناجحة ، وقبل أن يقوم رجال السياسة بإعلان الحرب عليهم أن يتيقنوا من أن استعداد الدولة أصبح كاملا ، جيشاً وشعباً .

٢ ــ الجيش من الشعب : لا يمكن الفصل بين الجيش والشعب قوة أو ضعفاً ، فكما يكن الشعب يكن الجيش ، والأمة سيف والجيش هو حده القاطع .

لقد انتصر الصليبيون فى بداية غاراتهم بسبب انحراف الدولة العباسية وانصراف الخلفاء عن الجهاد واختلاف القوم فيما بينهم ، فصار الوطن العربى حمى مباحاً ولهذا انهزم الجيش .

فلما ولى الأمر صلاح الدين عمل على جمع الشمل وتوحيد الأمة العربية ــ مصر وسوريا وفلسطين ــ فى جيش عربى موحد ، وبذلك استطاع أن يقهر الصليبيين ويستعيد الموقف .

٣ ــ التقاليد العسكرية والشرف العسكرى : لا يستقيم أمر الجيش ما لم يقم على تقاليد سامية كريمة وإيمان بالشرف العسكرى ، وقد أوردنا فى سياق الحديث عن معارك المسلمين والصليبيين فى عهد صلاح الدين عدة أحداث تثبت أن الجيش العربى الموحد قد التزم بعهوده لم ينقض أحدها ويقع فى انحرافات أخلاقية كالنهب والسلب .



الكتاب . . والمؤلف

● هذا الكتاب هو رقم ٤٥ من مؤلفات السيد فرج وكان أولها كتاب « الرياضة فى بلادنا » الذى أصدرته «دار المعارف» فى أول يناير سنة ١٩٤٠

● وقد شغل السيد فرج عدة مناصب ثقافية وإعلامية بارزة خلال العشرين سنة الماضية

● فى سنة ١٩٥٦ عين وكيلا ومديراً بالنيابة لدار الكتب

● فى سنة ١٩٦٠ عين مديراً عاماً لجامعة الثقافة

● وفى سنة ١٩٦٥ عين وكيلا لوزارة الإعلام

● وقد اختير عضواً فى المجلس الأعلى لدار الكتب والوثائق القومية والمجلس الأعلى لرعاية الشباب وعضوا فى مجلس إدارة المؤسسة الثقافية العمالية ومجلس إدارة المؤسسة الاجتماعية العمالية ورئيساً لمجلس إدارة مسرح العمال ومديراً لتحرير مجلة الثقافة العمالية

● وقد زار السيد فرج منشآت ومراكز الثقافة والإعلام فى عدة دول أوربية ، كما أسهم فى تنمية ودعم العلاقات الثقافية والإعلامية العربية

● وللمؤلف صلة قديمة ومستمرة بدوائر الرياضة البدنية والصحافة ، وكان لقلمه مكان مرموق على صفحات الأهرام والمصرى ومجلة الهلال ومجلة المشاة ومجلة رابطة العالم الإسلامى ، وكان يوقع كثيراً من مقالاته بإمضاء « سيف »

● وللسيد فرج ٤٥ كتاباً فى موضوعات حربية وثقافية وإعلامية من أشهرها « جيشنا فى فلسطين » و « القيادة والقادة العظام » و « عبور القناة » و « تيتو فى الميدان» و «صور من البطولة العربية» ومسرحية «ساعة إخلاص»

المحتويات

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٥/٤٣٧١
مطابع دار المعارف بمصر — ١٩٧٥
١/٧٥/٢١٧

